بنـــاء الفكـــر

أ. د. مسعد بن عيد العطوى

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بنــاء الفكــر

تأليف
أ. د. مسعد بن عيد العطوي

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقدمة:

لا ينكر عاقل قط أن المقدمات والنتائج التاريخية ترسم واقعاً ملموساً للمؤثرات الفكرية في كل عصر، ذلك لأن الشعوب تحسب في عطاءاتها، لا في أعدادها، وبقدر ما تكون الإنجازات كبيرة بقدر ما يتخلد شعب دون شعب، وأمة دون أمة، ولو أمعنّا النظر في مؤثرات الأعمال العظيمة، والمناهج المستقيمة في حياة الشعوب لوجدنا أن قبل كل عمل من هذه الأعمال يكون الفكر، والمنهج، والعقل، فالعمل غير المستند على نظرية فكرية منهجية عمل مبتور، وهو لا يرقى إلى التخليد، والناظر إلى الأعمال الإنسانية الجليلة يجدها مستندة أولاً وأخيراً على المعطيات الفكرية والعقدية التي أرساها التنزيل الرباني، ذلك لأن الأعمال تذهب، وتبقى الأفكار والأيديولوجيات التي تحقق نتائجها بتحقق المقدمات التي تصنع هذه النتائج، وليست المقدمات بنظري إلا هذا الفكر الذي يصنع المستحيل، ويُحيل الضعيف قوياً، والبعيد قريباً، والقليل كثيراً.

ولكن يظل الفكر قاصراً دون أن يترجم إلى عمل، ومن هنا كان التلاحم بين الفكر " النظرية " والعمل وثيقاً، وفي ذلك تتسابق الشعوب الحضارية في هذا الزمن، وعلى كل لابد أن نجتهد في بناء عقلية فكرية تقوم على المرتكزات الإسلامية لبناء الأيديولوجية الفكرية التي تضمن للمسلم الحياة الهانئة المؤثرة في ظل المعتقد الإسلامي الرائع.

أخي القارئ:

ما أحوجنا اليوم إلى إعادة الاعتبارات في تاريخ الإسلام المشرق، نقبل منه ما يصلح أمرنا، ولا نمنع عنّا الاستفادة من الآخر إذا كان ما نأخذه منه لا يتعارض مع شرعنا ومعتقدنا، نعم ما أحوجنا إلى بناء العقلية العلمية العملية التي تترجم النظرية إلى سلوك، وتحول المنظور إلى عمل، وتسعى إلى تحقيق الذات الفردية المؤثرة في بناء المجتمع.

إن العمل أيها الفاضل ترجمان الفكر، وإنك لتستطيع الحكم على أمة ما من خلال أعمالها وتراثها، فالشعوب بأعمالها تحسب، وبفكرها تنهض، وهذا يحتم علينا هذا العصر النظر إلى المنهج التعليمي الذي يحتاج إلى مثل هذه الأفكار في إدخالها ضمن منظومة التربية والتعليم في هذا العصر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الأول
ماهيــة الفكـــر

الاغتراب الفكري

الفكر: هو العمود المحوري الذي يوجه الأمم، فما ترقى أمه إلا وتكون صاحبة فكر قادر على توجيه مناحي الحياة البشرية النفسية والمادية، ولا نستبعد أن يكون مصدر فكر الحضارات القديمة ناجماً عن اقتباس من توجيه الأنبياء، أو الرسل الذين نعلمهم أو لم نعلمهم؛ فالفلاسفة في المشرق في الصين والهند ربما اقتبسوا من الرسل بعض الأفكار التي تفاعل بها البشر، وربما حوروا وحرفوا ومالوا بها، وكذلك الشأن في الغرب في أثينا واسبطرة وسائر الحضارة الإغريقية، مما جعل أفكارهم تعيش في كنفها حضارات سادت ثم بادت.

غير أن الحضارات التي عاشت مستظلة بالتوجيه الرباني الموجه لمسارات الحياة البشرية كانت الأظهر تاريخاً وإنجازاً حضارياً، وسيادة سلطوية كالحضارة الرومانية حين استظلت بالنصرانية – وإن حرفتها – لكنها أفضل الواقع، فتطور بناؤها الفكري والمادي، وامتدت أحقاباً تاريخية ولازالت.

وكذلك الشأن للحضارة الإسلامية التي امتدت مساحتها المكانية والزمنية، وأشرقت أنوارها الفكرية على الإنسانية، لكن الانحراف الفكري البشري الذي كان يطفو أخذ ينحرف بتلك الحضارات حينما يغيبون العمل بالتوجيه الرباني الحق.

ونحن عندما نتأمل رحلة الفكر في تراثنا الإسلامي والعربي نجد له مصدرين:

المصدر الأول: هو الذي ينتمي إلى بناء الفكر التشريعي الذي يتخذ من الفقه ميدانا، ثم تطور إلى ملامسة القضايا الاجتماعية في لمحاتٍ في كتب التفسير، وبشكل أوسع عند الفقهاء ولاسيما الذين يعتمدون على الرأي، ثم تطور الأمر إلى نظرة شمولية، فوجدنا مفكرين ألّفوا كتاباً خاصة كابن تيمية في كتابه (درء العقل والنقل) ومنهم ابن قيم الجوزية، ومنهم تقي الدين السبكي في كتابه (معيد النعم ومبيد النغم)، وكذلك المقريزي، وغيرهم، ويقتفي أثر هؤلاء جمع من المصلحين الذين لم يؤلفوا في قضايا المجتمع لكنهم عادوا بالمجتمع إلى التطبيق الكامل للتشريع الفقهي كأمثال الشيخ محمد عبد الوهاب.

لكن برز في عصرنا الحاضر من اعتنى بالفكر وطرحه طرحاً معاصراً كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده وأبناء قطب، وحسن الندوي، والمودودي ومحمد إقبال وعلي الطنطاوي ومالك بن نبي، وغيرهم ممن يمثل معلما فكريا في سائر الأقطار العربية والإسلامية، وهؤلاء لم يخصوا بتسمية فكرية أو فلسفية متميزة لها مناهجها وغاياتها، ربما لانحصار التفكير في محاور محددة عند كل منهم سواء القدامى أو المحدثين، أو ربما لقصور الفكر النقدي عند أمتنا العربية الإسلامية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المصدر الثاني: الفكر الفلسفي وحمله المفكرون الذين تصدروا للفلسفة المستوردة من اليونان الإغريقي، وهؤلاء لقبوا بالفلاسفة، ووصفوا بالمفكرين كأمثال الكندي، والفارابي وابن سينا، والغزالي، وابن العربي، وابن رشد، وغيرهم كثير من أهل المذهب الكلامي الذين حملوا لواء الاعتزال. وفكر هؤلاء يمثل الفكر المستغرب الذي نأى عن التفاعل الاجتماعي الواقعي لعدم ملامسته الحياة العملية الواقعية، ولعلنا نستثني أبا حامد الغزالي الذي خاض سائر العلوم ومنها الفلسفة، واستقر في المذهب الصوفي، غير أن الذي يعنينا منه استفادته من المنهج الفلسفي والمنطقي، حيث تجلى أثرهما في معالجته الفكرية للقضايا التجريدية التي عالجها في المجلد الأول من كتاب (إحياء علوم الدين)، فكون له فكراً منطقياً ناقش ذلك من خلال العقل، والعلم، والحكمة، والنفس والروح، وناقشها مناقشة منطقية فلسفية، لكن يرجح بها التوجه الديني، فاعتمد على النقل أولاً، ثم على الآراء التجريدية التي تقرب من الفلاسفة، ثم التأثير الروحي والنفسي من ناحية النية، والمقاصد الشرعية، وروضها بالطرح الواقعي العملي، وتلاحمها مع المجتمع، وهذا الكتاب هو أسبق الكتب الفكرية الاجتماعية التي خرجت حسب علمي، وقد أُلف بعده عدد من الكتب في القرن السابع والثامن، أشرت إليها آنفاً.

ونمجد نحن العالم النامي بفكره ومتابعة القضايا الفكرية في مجالسنا ومنتدياتنا، بل في صحافتنا ووسائل إعلامنا، وندعو إلى المؤتمرات ومجالس الخبرة والاستشارة، نمجد المفكر الكثير الاستشهاد بأقوال الفلاسفة والمفكرين الغرب، ويعجبنا إدراك هؤلاء المفكرين لما يحيكه الغرب ضد الأمة الإسلامية، وذلك خير ولا غبار عليه، لكننا لا نرى أن يكون لهؤلاء المفكرين الهيمنة التي توجه الأمة، بل هم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً لغربة فلسفتهم وفكرهم، بل يؤدي ذلك لغربة الفكر عن الواقع، فلا نستفيد منهم إلا بالنزر اليسير، وهو أشبه باستفادة الجيوش القوية من العيون الجاسوسية، فالذي لا ريب فيه أن القيادة الفكرية تنبع في جلّ أسسها من الداخل، والذي تحتاج إليه الأمة أن تمجد المفكر الداخلي مثل غيره إن لم يتفوق عليه، لكننا في عالمنا الثالث لو جاء مفكر من الداخل، وتناول قضية اجتماعية أو تربوية، كأن يتناول قضية التربية، وينظر لها نظرة منطقية بتحديد المشكلة ومراحل تكوينها قبل الإسلام وبعده، وما طوّره الإسلام بما ورد في الكتاب والسنة، وتقصي اللمحات في التفسير وشرح الحديث والفقه، وسبر غور التاريخ العملي للتربية وتطبيقاتها في حلقات العلم والكتاتيب، ومناهجهم في المدارس النظامية، وما أورده العلماء في مؤلفاتهم التربوية، وتصدر المفكر المعاصر وقبس الإضاءات من التربية الغربية ومزجه بالواقع المعاصر، وكونا منهجاً جديداً بما قالوه عنه: إنه مفكر أو فيلسوف، لأجهضت مثل هذه المباحث وتجاوزتها العيون في الصحافة والمنتديات.

ومن هنا نقول: إن الفكر المهيمن في غربة كبرى، فلا تنهض أمة إلاّ بفكر منهجي متكامل يتفاعل مع الداخل، وتنكشف لنا المفارقة بين مفكرينا ومفكري الغرب حين نقارن بين مفكري نهضة الغرب ومفكري نهضتنا، فالمتنورون الذين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قاموا بالنهضة الأوربية الأولى رصدوا القضايا الداخلية وعالجوها، فجلّ هؤلاء كانوا من الفلاسفة والمفكرين الذي تأملوا الواقع وتطوره فكرياً، ثم مزجوه بفكرهم المعاصر، وروّضوه علمياً وعملياً.

بينما نجد أن جلّ المفكرين الذين تصدروا لنهضتنا العربية استمدوا من الغرب أو مال بهم الاتجاه الفكري الغربي، بل في أكثر أحوالهم حاولوا أن يأتوا بالفكر الغربي الذي نهض بهم ليلبسوه مجتمعنا، مما جعلنا بعد قرن من الزمان ندرك أننا مازلنا نسير في بعض الدروب التائهة.

فنحن لو تأملنا قضايانا المعاصرة في العالم الإسلامي لرأينا تحكم التفكير الغربي وفلسفته وحضور مفكريهم الدائم في جلّ القضايا الفكرية بدءاً بالتربية الروحية والعلمية، ويتجلّى الفكر الاقتصادي بقوة، وتتكشف القضايا الفكرية الاجتماعية بحياء، وتظهر في الاتجاه الإبداعي والتنمية، بل وفي مفاهيم الحضارة، ونحن لو كنا معتدلين لرأينا فكرنا يطفو، والفكر المستورد يكون عاملاً مساعداً.

فلعلنا نعيد النظر في مصادر فكرنا ومصادر مفكرينا، ونصقلها بالمباحث الاستنباطية الجديدة لندرك مدى تنظيرنا، ومدى إيجابيات المدح والقدح، ونقيم الفكر أيضاً ببحوث مقارنة واقعية حتى ندرج إلى القرن القادم بأسس راسخة داعين الله عز وجل أن يلهم أمتنا دروب الخير والإصلاح في إطار التشريع الذي يواكب كل تطور تربوي أو فكري.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ماهية العقل

العالم اليوم عالم العقل، تريد كل أمة أن تستحوذ على هذا العقل، وأن توظفه، وأن تخطف عقلانية الشعوب، بل العقل اليوم هو وسيلة العولمة وغايتها، فهو الأقراص السحرية التي تستوعب مكتشفاته العقل عبر الملحوظات العلمية لقرون من البحث العلمي، العقل هو الذي يبني الفرد بكل عالمه المجهول، ويبنى الأوطان، وعقل اليوم عند الأمم المتحضرة يستعبد الأمم التي لا تُعنى بالعقل.

إن العقل موطن أو مواطن خلاف الفلاسفة والمفكرين وسائر علماء الطب، وملخص أقوالهم فهل يكون وعاؤه محدوداً محصوراً في الدماغ؟ تلك الشبكة العلمية أكبر شبكة وأدقها تلك الصحاري المجهولة ومهما كبرت تلك الصحاري فإنها تتضاءل أمام الكم الهائل من المعلومات، والموجات الفكرية، والتيارات النفسية.

وتجري الأبحاث حول علاقة العقل بالجسم وعلاقته بالروح: وما علاقته بالنفس؟ إنه الفيافي الشاسعة التي منحها الله في كيان البشر، كل البشر، أفلا نتبصر استجابة لقول البارئ: " وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ "؟ إن عقولنا تلك مرة تلو أخرى خاسرة ذليلة حقيرة أمام الواقع. وهي تستطيع أن تدرك الجهل العالمي في أنفسنا، فإن تلك المساحات المجهولة لا يدركها إلا العلماء، ومن هنا نسميه جهل العالم، وهذا ما يقتفي أثره العقل نفسه لعله يدرك شيئاً من المساحات المجهولة، وقد أدرك ما يذهل العقول بل عقول الأمم مجتمعة، وما زال الكثير من المساحات المجهولة التي لا تستطيع العقول البشرية اكتشافها عبر الأحقاب الطويلة.

إن العقل عالم فسيح، والجهل أكثر رحابة، والعقل يتضاءل صغاراً أمام اكتشاف الكون أو لنقل ماهية العقل نفسه، والمتأمل في الآيات القرآنية يجد أن لفظة العقل تحمل دلالات مختلفة فمن المعاني القريبة أن العقل مأخوذ من عقلت الدابة، أي شُدّت قوائمها بحبل، فتكون محبوسة ومحتواة لمن عقلها، ومنه العاقلة التي تدفع الدية، فهي تأتي بالإبل وتعقلها عند طالبها، أو من يدفعها إذن معناه الاستيلاء والاستيعاب والإدراك ومنه قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾البقرة (٧٥) أي بعد إدراكية عقولهم، ولفظة العقل الواحدة توحي بدلالات متعددة فتأتي بمعنى التأمل والتدبر كقوله: ﴿ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾المؤمنون (٨٠)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾البقرة (١٦٤).

والفلاسفة اختلفوا في الوعاء العقلي؛ هل هو جهاز الدّماغ ذلك الجهاز الذي يتحكم في سائر أعضاء الجسم البشري؟ وليس هذا وحسب بل في سائر حركاته وسكناته، ونفسيته وأمواج مشاعره، بل إنه يبني قلاعاً نتيجة ديمومة التصرف السلوكي والنطق اللساني، والإجهاد الفكري، فكثير من المفكرين يجزم أن الدماغ هو الوعاء العقلي، ومن هنا ذهلوا بين حجمه ودقته وكثرة وظائفه وعجزه عند تراكم المعلومات، وعدم احتوائها أو إدراكها، ولكن القرآن الكريم يورد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آيات يمكن أن نستنبط منها أن الإدراك العقلي لا ينحصر في الدماغ بل يكون في ماهية أخرى قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾الأعراف (١٧٩)

وقوله سبحانه: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد (٢٤)

بل يكشف صراحة أن القلوب وسيلة للتعقل ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ الحج (٤٦)

فالعقل مادة يشترك فيها الجسم والروح، والحياة البشرية، فالعقل البشري مادة جوهرية ومنحة ربانية مخصوصة للإنسان، ومن أكبر وظائفها أنها تدرك عظمة الرب سبحانه وتعالى، ومن ثم الإيمان به، والعقل وسيلة للتأمل كي يدرك الإنسان الغيبيات، والعقل الذي لا يخضع للتوجيه الرباني ينزلق في متاهات من التيه حول الربوبية والغيبيات.

ومادام أن العقل يدرك الغيبيات بالمشاهدة والملاحظة والتأمل فإنه وسيلة العلماء في الاستنباط من واقع الحياة عن طريق الملاحظة والمشاهدة، وإجراء التجارب، وعقد المقارنة، واستنتاج المتشابهات والعقل البشري أشبه ما يكون بالمادة الخام التي يصنعها الإنسان كيف يشاء، فهذه المادة العقلية توجد متشابهة عند البشر، فأبواه ينصرانه، أو يمجسانه والتربية تنمو به أو تجمده أو تبخسه وتحرفه، أو تمنحه منهجاً معتدلاً، وقلّ ذلك فإن التربية المهيمنة في أمة يستجيب لها أكثر أفراد شعبها، ومن هنا نبعت أهمية بناء العقل البشري، ونحن يهمنا بناء العقل المسلم، ومَنْ أولى بالإسلام من جزيرتنا؟!.

العقل وصناعة الأنماط الفكرية

يولد الإنسان بلا وعي عنده إلا ما كان غريزياً يشترك مع سائر الحيوانات الفطرية، لكن الله خص الإنسان بالعقل ذلك السجل غير المسطور في مرحلة الطفولة الأولى، والعقل يمثل الوعاء الشامل للوعي، بل إن هذا الوعاء صفحة بيضاء كرؤيتنا للسماء الزرقاء في رابعة النهار، وهذا العقل ذو الحجم الصغير في رؤية البصر تتسع آفاقه عند تأملنا الفكري لأبعاده، ونجد أن المفارقة الكونية بين عقل الإنسان مقارنة بالسماء التي تطوى كطي السجل يوم القيامة، وهي تذهل البشرية كما أذهلتها من قبل بمكوناتها النجومية، ومداراتها الكوكبية، ومجراتها العلوية، ذلك ما أكتشف الإنسان، والخافي أعظم، تلك نظرة علوية فإذا ما عدنا بفكرنا لذواتنا وعقدنا المقارنة بين فضاءات السماء وفضاءات العقل فإن الفضاء العقلي منحة الله للبشر، فكأن البشر لم يتنبهوا له، فلما تأملوه فإذا هو يحوي من الخوارق ما يذهل نجوم المعرفة والعلم.

وكذلك العقل فهو صفحة مصقولة تستقبل المكونات الذهنية متعددة الروافد التي تحفر في العقل البشري معالم التفكير وأنماطه؛ فالأمطار تهطل على تلك الصفحة البيضاء من فوقه ومن أمامه ومن ورائه ومن يمينه ومن شماله، ومن حيث يدري ومن حيث لا يدري، استهلالاً بوالديه وبيئته، وامتداداً إلى المجتمع والفضائيات، ومن جوانب التربية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السلوكية، وغرس الحقائق المعرفية، واكتناز المخازن المعلوماتية، وما تحشده الحواس الخمس والحدس، وما لا ندركه حتى لو فطن الإنسان واشرأب لاستيعاب كل شيء لا يمثل هذا إلا أقل من عشرة بالمئة، ومع هذه النسبة الضئيلة فإن الأمر عظيم وأثر هذه المعلومات الذهنية كبير، فكلها تبادر لتتخذ مواطن استقرارية في صفحة العقل، وتتكون شرائح اجتماعية داخل منظومة البناء العقلي وتشكيله الأولي، فهذه المعلومات حين تلامس قيعان العقل تحفر لنا أودية سحيقة، وتبني جبالاً راسخة، وتارة تلالاً وشعاباً ومزارع موسمية وغابات كثيفة ومراعي زائلة، فالمكونات الذهنية لتركيبة العقل يكون منها الراسخ ومنها المتحرك، إنه حاسب يتفاعل ما في داخله، وتمتزج معلوماته لتكون كياناً منفرداً بخلاف الحاسب الآلي الذي يعجز عن هذه الوظيفة.

فعملية البناء داخل العقل البشري أدركتها الأديان قبل غيرها، وأدركها الفلاسفة المفكرون والعلماء المصلحون، ولكن مع امتداد التاريخ الزمني والتراكم المعرفي تشتد عملية المباراة والمنافسة لغزو هذا الفضاء العقلي لعالم العقل البشري المعاصر، ومعالم تكوينه، واحتلال مواقع فيه.

وخاصية هذا البناء العقلي لتكوين الذهنية البشرية بأبنية الاستقرار داخل المجتمعات في وعي الفرد العقلي تبادر إليها الأمم، فكلما احتلت مساحة في العقل اتخذت مكاناً عليا والذهنية البشرية تؤدي إلى هيمنة في كيان المعمورة الأرضية؛ ولأنها أسهل وسائل الهيمنة كما يتجسم لنا اليوم، والدول المعاصرة أكثر وعياً بهذا، وهي محقة في ذلك؛ لأن خاصية العقل ومكوناته الذهنية تتفاعل وتكون بيئة داخل التجويف العقلي، وتصنع أنماطاً توجه الفرد أو الأفراد إلى فكر أولئك الذين استطاعوا احتلاله أولاً كما يقول (إدوارد دي بونو): "يعتبر العقل نظاماً مصمماً للأنماط، حيث يعمل نظام المعلومات في العقل على خلق أنماط يمكنه تمييزها" التفكير الإبداعي ص ٣٢.

وتكون الأنماط خاضعة لماهية الموارد المعلوماتية المؤثرة في بناء أنماط الحياة لتلك العقلية، كأن تنغرس أنماط سلوكية تتلبس بغريزة من الغرائز، فيعلو شأنها، ويعظم أمرها، ويطفو تأثيرها على فرد دون غيره، كأولئك الذين غلب عليهم تيار الوجد والوجدان الرومانسي من عشاق العرب، والتربادور في الغرب، فقد استحوذ عليهم دون سائر الغرائز، والمكونات الذهنية الأخرى، وهناك من غلب عليهم تيار الرغبة الجامحة لبناء الاندفاع العقلي وتهاوت قوة الغريزة الوجدانية كما يتمثل في كثير من العلماء كابن تيمية وسيد قطب، وأفواج من رجال الصوفية، وهناك من غلب عليهم جانب الاندفاع في موجة القوة الجسدية، والعظمة المعنوية كالفرسان العرب، وكذلك الصعاليك، وتختلف الأنماط باختلاف غزارة بناء المكونات داخل البنية العقلية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهناك أمطار معلوماتية تبني عقولاً ذات أنماط منهجية قابلة لتحولات الأعاصير والرياح الجارفة، قادرة على التعامل معها في ثبات يحميها من الانجراف، ولا يمنعها من استبقاء البذور التي تحملها الرياح، أو الاستفادة من الأمطار التي تحملها التيارات والأعاصير.

وهناك معلومات فجة تكون أنماطاً واهية تجعل الفرد يمور مع الأعاصير، والتيارات كما تمور أتربة الصحراء، أو نفوذ الربع الخالي، فهي متحركة لا يستقر لا قرار.

ولم يطرأ على العالم بأسره – في حاضره وغابره – هطول أمطار فكرية، وعواصف سلوكية تحمل تلوثاً، وتوظف وسائل فاعلة كمثل زمننا هذا، ولديها القدرة على أن تحفر وتحوز مكاناً في صناعة التكوين لعناصر المفاهيم الذهنية، وقبل ذلك صياغة الأنماط الفكرية بل تهز الأنماط وتعصف بها.

وعالم اليوم أشد تنافساً على احتلال مصادر تكّون الأنماط العقلية العالمية لكل أفراد الكون، أنهم يتسابقون بل يتحاربون بوسائل الحروب الذهنية؛ لأنها أشد فتكاً على احتلال مساحات داخل الوعاء العقلي الفردي والجمعي في المعمورة الأرضية، وكان من قبل يقتصر التوجيه على الذهنية الفردية داخل الأوطان.

إن اكتشاف المناطق الوعائية العقلية، واحتلال مكانة فيها قريب المقارنة بالتنافس حول اكتشاف الفضاء واحتلال مكانة فيه بل إنهم قادرون على توجيه الطاقة في الفضاء لصالح البناء البشري أو لتدميره.

ثم أدرك العلماء أن فضاء العقل أهم بكثير من الفضاء الخارجي فصيَّروا الأخير وسيلة فاعلة ووظفوه لتوجيه العقل ليريحهم من الحروب الدموية، وهم يمتلكون ذهنية العالم لتسخيرها لصالحهم، وليست للندّية كما يزعمون، فهم قادرون على فرز الأفكار وحجب المنافع في ملكيتهم الذهنية.

وهذه النظرة التأملية في تأسيس البناء العقلي تتواصل مع التوجيه الإسلامي، فقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك الخاصية في حديثه الشريف حين أبان عن تأثير الفكر على العقل، وكونه يعمل فيه كعمل الغيث في الأرض الفضاء "إن مثل من بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء؛ فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله وتفقه بما بعثني الله به، فعلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به " متفق عليه. رياض الصالحين ص ١١٤.

إذن فإن عقول أبناء الأمة أمانة وطنية سامية، وأمانة اجتماعية، وأمانة أسرية، وأمانة فردية مستمرة مدى الحياة الفردية والجماعية، تشاد لها الوزارات الدفاعية، والوزارات التربوية، وتبنى له المناهج الفردية والاجتماعية، وترسخ القيم السلوكية التي تكوّن أنماطاً عقلية ذات قابلية للخير، قادرة على تمحيص التلوث وجَلْي الضباب وحجبه، أو تمريره في وجه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التيار، حتى لا يستقر له قرار، وأي مهمة هذه؟ إنها أعظم وظيفة بشرية حملها الرسل والأنبياء والعلماء، ولم يحجبوا أنماط العقل عن استقبال الخير، بل دعاهم القرآن الكريم إلى التأمل الفكري، بل بواسطته غيَّر أنماط الفكر الجاهلي وحطم أسواره وبنى أنماطاً جديدة.

ولا ريب أن كثيراً من المفكرين الذي لم يستظلوا بظلال التوجيه الرباني تاه بهم الفكر وهم يحملون الراية بجموع بشرية تتدافع خلفهم.

ونحن لما نقارن ثقافتنا الإسلامية الحقة النقية ذات الحجة البيضاء بغيرها، نجدها تصنع عقولاً وتبني وعياً يقوم على:-

١- أنماط من الثوابت الربانية والتوقيفية

٢- فكر حركي تأملي من أخص وظائفه زيادة الإيمان والوعي بوسائل بناء الحضارة.

وكلاهما النمط الثابت والنمط الحركي يكمل الأخر، ويتفاعل معه في ديمومة تجاذبية، وتلاحمهما يصنع بيئة عقلية ونمطاً للاستقبال، ولما نقارنه بالنمط الغربي نجد الأخير عند الغرب يقوم على النمط الحركي، وله دوره في بناء الفكر العلمي، لكنه سريع الحركة مع التيارات الموجهة عالمياً، خاضع للهوى وما تمليه العواطف والغرائز.

ولقد صنع منها قيماً باسم الحرية، وهي تنأى عن القيم السامية التي نزلت بها الأديان السماوية في مرحلة صفائها، ولا يقر عقلاء الأمم أن الخضوع للقيم السامية نفي للحرية، بل يدركون أن الخضوع للهوى الجمعي والشهوانية المؤثرة في السلوكيات أكثر نفياً للحرية.

إن المعادلة صعبة وتحتاج إلى عمق فكري يؤدي إلى الإقناع، والفكر الإسلامي النقي الصافي من شوائب الأهواء الاجتماعية وأنماطها جدير بأن ينافس ويمثل مكانه سامية في تلك العقول الحركية لو تعانق معها، وتخللها بصورته السامية، فهم يتعطشون له، لكن المصدات والحواجز والسدود تقف ضده، فضلاً عن اضمحلال الوسائل التي تحمل الفكر الإسلامي، فتنعدم الوسائل القادرة على تبليغ الرسالة الفكرية السامية.

وما دمنا نفتقد القدرة على التواصل، ونفتقد القدرة على الاستيعاب في أن نعمل على بناء عقولنا البناء السليم فنحن أجدر بأن نفكر في عقولنا بوعي لتكون مصدراً لصناعة نمط التفكير الإبداعي الحي الذي يبني الفرد والمجتمع على صورة سليمة، ويدرك كيف يتعامل مع الوافد الغازي بتياراته الجارفة، ومن هنا كان على الأمة التفكير مليا في بناء العقول الناشئة للأمة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفكر التربوي وتشكيل المجتمع

حين نبحر في أعماق الفكر التربوي العربي ندرك أننا نمتلك فكراً منبثقاً عن العقل، وفكراً سلوكياً مروضاً ترويضاً واقعياً، ويظهر هذا الفكر العملاق عند العرب قبل الإسلام، فالذي يجيل النظر طويلاً في التراث العربي قبل الإسلام، ويمحص مضامينه، ويستنبط فكره يكشف عن كنز من المبادئ ذات القيم العليا التي افتقدها عالمنا المعاصر من أقصاه، إلى أقْصاه ومن أهمها: الصدق والوفاء والسخاء والسماحة والرحمة والشفقة والتعاون والتآزر، وكلها تنبع من التعامل الإنساني الذي يجل إنسانية الإنسان، ويحترم فرديته المعتدلة، ويصون تعامله الاجتماعي، وقد تبنّى سمو الأمير مشعل بن عبد العزيز مشروعاً، كشف الباحثون فيه عن قيم أحوج ما تحتاجها الإنسانية المعاصرة جمعاء، وقد توارث العرب هذه الفضائل حين اعتنقوا الإسلام، وزادت دلالتها الإنسانية، وزرع الإسلام قيما جديدة أيضاً، وهذه القيم شكَّلت المجتمعات العربية في رقعة كبيرة من الأرض وأقامت أحقاباً زمنية متوالية.

ومع أن هذه القيم تحمل دلالات سعي الفلاسفة القدماء والمحدثين لسبر أغوارها، حيث دأبوا إلى تحقيق مظاهرها، ولكنهم لم يبلغوا الغاية لها، أما المجتمع العربي فلا ريب أنه استقاها من التوجيه الرباني أولاً حين دخل الإسلام، وهذه مرجعية كبرى وفرت على المفكرين والساسة والمنفذين العلماء جهداً كبيراً، وحمتهم من التيه في فلسفة التجريد.

ونحن لو أخذنا نماذج من المجتمعات الإسلامية، وخضعت هذه النماذج لدراسات في حينها لذهلنا لفاعلية هذه المرجعية الكبرى.

وهذه المرجعية الكبرى ثبّتت المجتمعات الإسلامية عبر قرون مع فقدان التنظير الاجتماعي والتربوي، وفقدان التوجيه السياسي للفكر.

والذي ثبت هذا الفكر وصيره شائعاً شعبياً يمتلكه العامة أكثر من امتلاك الخاصة له هو ارتباطه بالمصداقية العملية، فإن التوجيه الرباني سهل هذه القضايا الإنسانية، وعاملها معاملة واقعية، وأخضعها للسلوك الفردي والاجتماعي والشعبي، وجعل الواعظين والدعاة يمتلكون ناصيتها، وكثير من المفكرين ينتقد، حتى مثل هذا الفكر الذي يعدد لهذه القضايا، ولكني أجزم أننا إن سعينا وراء الفلسفة الغربية والفكر الغربي، وأهملنا الفكر الإسلامي الواقعي وتجاوزناه ولم نجعله القاعدة الأولى التي نطورها بواسطة المناهج الفلسفية والفكرية المعاصرة جعلنا نتيه فكرياً وتربوياً، فالبحث التربوي في فكرنا الإسلامي والعربي لا يحجزنا عن التماس الفكر الصائب من ثنايا الفلسفات والموجات الفكرية العالمية.

ونحن في بلادنا، المملكة العربية السعودية أخذنا بالتنظير، ودرسنا العلوم الشرعية، وهذه مهمة كبرى لها أثرها الأكبر، لكنها تناقصت لعدم مصاحبة الممارسة العملية التربوية التي تصحب التدريس النظري اليومي، وفقدان الممارسة السلوكية والمنهجية والعقلية والعملية أفقدت الدارسين في كثير من مدارس العالم الإسلامي الإقدام والعقلية والجدلية الحوارية الفكرية، التي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تقف بواقعية أمام القضايا وسمو فكرها في مواجهة الإقناع لتيارات فكرية أكثر بريقاً ولمعاناً، لكنها بلا غيث ولا مطر، وإنما سحب صيف تمتع قليلاً تبهر أحياناً ثم تنجلي بلا أثر.

ونحن لا نشك أن الفكر المعاصر يقدم لنا نظريات جديدة، تدعونا إلى الاستبصار في كتاب الله وسنة رسوله وتراثنا لتكتشف لنا فكراً نيراً، ومن هنا فإنه من الخير للمسلمين في كل بقعة أن تكون هناك المبادرة الفكرية لتلاقي الفكر ولاستنباط الأسس الراسخة من ضمير الأمة أولاً.

فمثلاً نظرية العقاب التي نفاخر بإبعادها عن المدارس، فلو نظرنا إليها نظرة ربانية لوجدنا أن القرآن الكريم يدعو لها ويحذّر منها، ويدعو إلى الرغبة والرهبة والحدود الشرعية لم تستثنِ أحداً، فمن يؤمن بالتوجيه الرباني يكون منقاداً، وأمّا الذين يوجدون التأويلات فإن عليهم أن يطرحوا القضية طرحاً تربوياً مقارناً، ويكون الاستبيان والاستنتاج عن طريق الرصد للعقوبات الواقعية التي تأخذ بالخوف المعتدل، وتمارس العقاب بالتدرج القولي والسلوكي ليكون آخر دواء الكي، ويكون تحت رقابة إشرافية.

لعل الدراسة الفاعلة سريعة الإنجاز لكل قضية من القضايا التي تتمثل في إصدار بيان تربوي يكون مصدر قوة للأمة في مستهل هذا القرن، يستند على أسس ركيزة من المعطيات الشرعية والأخلاقية والاجتماعية، ويخضع للدراسة والتمحيص من خلال مشاركات القاعدة في قرار القمة ومن خلال التأثير بالواقع وفق التغيرات المسلكية التي ترصد مستقبل الأمة ومخرجاتها. وبذلك تخرج عن البيانات التربوي التي تستند إلى الانطباعية والحادثة المتفردة، وربما تقوم على الهوى والذاتية للإرهاب الصحفي الذي يمارس بحجة أغلاط لا تمثل ١% فهي لا تقود الأمة إلى القوة والاعتدال. فالإرهاب الصحفي عندنا لم يسر على قواعد، بل لم يكن له من مفكرين، وإنما هو إثارة صحفية، ولذا أرهب رجل الأمن، وأرهب الأب، وأرهب المعلم، ففقدنا الحزم، وأخذ المجتمع بالتفلت.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مكونات الذهن الإداري

يحتوي الفرد في مجتمعنا على مكونات ذهنية راسخة لها الهيمنة على سلوكياته الإدارية الذاتية التي تؤطر حياته الخاصة، والإدارية العملية التي تكشف عن الضمير الإداري الجمعي. والمكونات الذهنية في مجتمعنا تدور في أفلاك ثلاثة الأول يمثل الهيمنة الدينية وتجذّرها وتناميها، فلا ريب في تمحورها في كيان كل فرد وإن اختلف تفاوتها وتحكمها في الأفراد والثاني: الانتماء العصبي الذي يدور حول الوطنية والإقليمية والقبلية، والثالث: الإطار المعرفي المكتسب بمنهجيته المعاصرة، وتأثيره العقلي، والسلوكي. وهذه المكونات تتكشف في الإدارة الذاتية والعملية لدى كل فرد. لكن الذي يعنينا منها الجانب العملي؛ لأن الإدارة العملية لجماعة تدير جانباً من جوانب الموارد والقوة للأمة وصلاح مديري الأعمال فيها صلاح للأمة، ولكي نخوض محيط الواقع علينا أن نقوم أو نقيِّم الإداري من هذه المنطلقات الثلاثة:

١- الموقف الديني.

٢- الموقف الوطني وعصبة الإقليم والقبيل.

٣- الموقف المعرفي.

ولو أخذ كل منا إيجابيات هذه المنطلقات لكان هناك توازناً راقياً لأنّه لا تعارض بينها إلا عند ما يكون هناك خلل في تأثير بعضها على بعض، فلو التزم الإداري بالنّظر الديني لأخلص في عمله، وأنجز متحرراً من ربقة السلبيات التي تطرق تصرفاته في كل مرة بلا كلل ولا ملل، ويكون هاجس الإداري رضا ربه، فيدرك أنه سيحاسب فرداً يوم لا ينتفع بقبيل ولا إقليم، فيكون هذا الهاجس كفيلاً بصلاح الفرد إدارياً بحمل الأمانة التي عجزت عنها السموات والأرض وحملها الإنسان، فلعله لا يجهل عظم المسئولية، وإن كان الإداري الذي يحمل هاجس الوطن الذي يوحّد الشرائح الاجتماعية، ويوظفها لصالح المجتمع الذي هو صالح الشرائح وأفرادها. وكل إفراط في التوازن يؤدي إلى شرخ في جانب الوطنية، والذي يخدم الوطن مخلصاً يخدم أمته وسائر أفرادها، حتى أولئك الأقارب الذين يظنون أنّهم لم يكسبوا من قرابتهم لهذا الإداري، وربّما أن الكسب المادي أو الجاهيّ المباشر، يعود بضرر أشد فتكاً؛ لأن كثيراً من الأفراد يطلبون حقوقاً لهم ويتناسون الحقوق الواجبة منهم لوطنهم، فنظرة الاعتدال من الإداري لها ثمن باهظ عليه إذا لم يطلب الأجر من الله، فإنه لا يستطيع الاعتدال أمام متطلبات العصبيات الداخلية التي إذا ما نمت كانت مرضاً في عصبة الانتماء الوطني الوحدوي الجماعي، والذي هو الأول والأولى، فهل يستطيع كل إداري أن ينوّع مستشاريه ومعاونيه ليمثلوا شرائح المجتمع. حتى لا تكون الصبغة واحدة؟ وهذا يرفع عطاء الفرد والمجتمع ويحدّ من الإفراط، ويخضع للتوجيه الربّاني الذي يوحد صفوف المجتمع، ويجعل الأفراد يتنافسون في بناء الذات، ومن ثمَّ بناء المجتمع، فالمسئولية فردية أولاً، فإن العلم الشرعي يجذر في لب الواعين به أنماط جمع المال، يدعو لطلب الخير، والعمل على الكسب، ولنضرب مثلاً بالعمل الصحابي، فكل منهم يعتمد على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كسبه لا على راتب محدد، ثم شرع التصرف بالمال من الإحسان لأسرته، ومن الزكاة المقننة، ومن الصدقة مفتحة الأبواب، وحذر من كنز الذهب والقناطير المقنطرة؛ والجانب المعرفي: يحمل في ثناياه ضرورة المنهج للفرد والجماعات، فالفرد له منهجه الزمني، ومنهجه العقلي، والسلوكي، والعملي، والتزامه لأمته ووطنه، ومنها ينطلق للإيثار، بل يدفع ضريبة التعاطف الجمعي معه،

وضريبة الأمن القومي، ولا يستأثر فضلاً عن أنّ يزيف مالا أو جاهاً لذاته أو لثلتّه.

- والجانب المعرفي يمد الفرد الإداري بالتطور المعرفي ومنهج الاستفادة منه وترويض النظريات لتطبيقات الأعمال والإنجاز بها لصالح الوطن أولاً، ويعود بالخير كل الخير على الفرد الذي يبدع، ويكون مبدعاً لعين من عيون الخير للوطن.

- والجانب المنهجي والمعرفي يؤهل النجم الإداري لحمل الأمانة الربانية والإنسانية والوطنية.

- والجانب الإيماني ينير قلب الإداري للتوازن المعتدل بين المكونات الذهنية، فلا تغرره العصبية، والرقابة الإيمانية تحجب رغباته عن أن تهفو لثراء الملتوي.

- والجانب المعرفي ليس غايته التخلّي عن امتلاك الهيمنة الدينية والتعصب والمعرفة، إنّما يأخذ بالتوجيه الرباني، ويجعل التعصب معتدلاً، ويحد من نزعة الأنا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثاني
الفكر العملي

خلق الله الإنسان في الجنة، وأودعه خصائص العمل، فالعقل يقوم بفكر العمل، ويوظف الأعضاء، ويوجها للإنجاز، وقد امتحن الله أبانا آدم بالعمل، فلا يقرب تلك الشجرة، ثم أنزله إلى الأرض، وجعله أمامها وجها لوجه، مؤهلاً بالعقل وأدوات العمل، وتلك خاصية الإنسان من بدايته حتى نهايته، فآدم أخذ يتأمل الطبيعة، فهو أمام ابتلاء جديد، يؤدى إلى كشف أو استكشاف الطبيعة وتسخيرها، وهذه حال أبناء البشر أمام ابتلاءات متكررة، فكم من ابن مترف أو رجل كان في غضارة من العيش ارتمى في أحضان الصحراء القاحلة، فأخذ يسعى كيما يعثر على الماء، والنبات، فإنه سيكتشف من الطبيعة ما يقوم به أوده.

وآدم أخذ يتفاعل مع الطبيعة، وسار على نهجه أبناؤه، مقلدين ومبتدعين أشياء جديدة، وهكذا استثمر الإنسان الطبيعة، واستثمر الأرض تحقيقاً لقوله تعالى: ((وسخر لكم ما في السموات وما الأرض جميعا منه)) الجاثية١٣.

ولا يكون الاستثمار من هذا المسخر إلا بالعمل، والعمل يتمثل في فلسفة فكرية تجريدية معنوية، وحسية عملية، ولامناص من التقائهما وتفاعلهما، ومن ثَمَّ تكامل العمل، وهذا ما وجه الله إليه الإنسان، ليكون كادحاً عاملاً في هذه الدنيا، وبقدر عمله يجني الحصاد والرضا، وأولها رضا الرب الذي يتأتى بالإخلاص في العبادة، ومن العبادة العمل في سائر الأوجه ((وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)) فالرسالات عمل، وكسب المعيشة عمل، وبناء الأوطان عمل، والدفاع عن الوطن والمكتسبات عمل، والموت هو نهاية العمل، فالحياة عمل متواصل، لا راحة فيها إلاّ بالنوم أثناء المنحة الربانية، فالليل سبات والنهار معاش، والغرب يأخذون بهذا المبدأ الرباني أكثر من المسلمين الذين يسهرون ليلاً، وينامون نهارا.

فالعمل إذاً مصاحب للإنسان، ومن كان في بطالة فقد ضعف جانب الحياة عنده، بل هو في نكد وكآبة، والذين يعملون عملاً فكرياً وعملاً يدوياً أكثر سعادة وراحة نفسية، والعالم الذي يجري التجارب أسعد من العالم المنظر.

واقتضى أمر الله أن يكون توجيه العمل في هذه الأرض من مهام العقل البشرية بعد أن هيأ البشر له خلقا وسلوكا، بل أجزل المكافأة للمخلص دنيا لكل البشر، ودينا ودنيا للمهتدين الموحدين.

وقد طرحت البشرية أفكاراً لتوجيه البناء الأرضي، واكتشفت الأسس والضروريات الحياتية، ومع كل ذلك ظل الفكر العملي متواضعا أمام المسئولية المبتغاة منه، والمناطة به، فالفلاسفة حاولوا وضع فلسفة فكرية عملية قاصرة، استنبطوها من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واقع الحياة المنحرف، فقاموا بتشريح المجتمع إلى فئات أولها الأمراء والسلاطين والعسكر، والثانية شريحة الفلاسفة والمفكرين، والثالثة أرباب الصنائع والمهن، وهذا التقسيم الجائر الذي يخالف الطبيعة البشرية يقترب تماما من التقسيم الذي درج عليه التشريع القبلي البدائي، فكل مجتمع قبلي يضم شرائح ثلاثاً أولها الأمراء ورؤساء القبائل ومن على شاكلتهم وثاني الفئات الرعاة والفلاحون والفئة الثالثة الموالي (أرباب المهن).

وهناك إسهامات لعلماء المسلمين دعوا فيها إلى السلوك العملي والإنجاز فيه، غير أنها لم تمثل منهجاً متكاملاً، يشمل جميع شرائح المجتمع.

يقول ابن الأزرق عن الإنسان: ((إنه متى تجاوز طور الضعف قادر على اقتناء المكاسب سعى فيه بدافع العوض مما حصل بيد غيره مما خلق للجميع...

فابتغوا عند الله الرزق، وما يحصل منه بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة، فهو معين السعي لابد منه، ولو في تناوله على حسب ما قدره منه)) بدائع السلك ٢: ٢٩٧.

ومن شأن العمل الذي تصورنا أهميته أن يتصدر الفلسفة والفكر، لكنه ظل في طيات النسيان حتى ولج إلى ساحة الفكر التنظيري والعملي فيما ما يقارب القرن الثالث عشر الميلادي بالحركات العلمية والعمالية، ثم تطور مع ما استنبطته العلوم الإدارية المعاصرة مع أنها تقوم حول الإدارة، ولم تبن على فلسفة فكر العمل، وتكوين مفاهيمه وقيمه، وكان هذا بالحجم من الفكر أدى إلى نجاح العامل الغربي والعامل في بعض دول الشرق . في أداء رسالته.

لقد اكتفينا ببعث البعوث محدودة العدد، وقليلة الأثر الفكري لا الإنجاز العملي. وكذلك استيعاب العامل الغريب، بل تكاثرت وفودهم حتى أصبح لهم شأن في الدخل القومي زيادة واستنفاداً، وقلَّ أن نقبس من جيوش العمل المهني، بل كانت بلادنا موطنا لتدريبهم: أما من ناحية التنظير فإنه يدور في بلادنا حول اجتهادات فردية في كتابة بحوث أو مقالات تنظيرية ربما لم تبلغ مخيلة المنفذين.

وكذلك فإن الفكر النابع من الجماعات بطيء التواصل مع التنفيذ العملي والواقعي معاً.

بل إن عمالتنا التي تواكب هؤلاء نكاد أن نحكم عليهم بالاتكالية، وعدم الممارسة الفعلية، ومراكز التدريب في القطاع الخاص قليلة، وهي مع قلتها تدرب الوافدين، ولا يتقنها المواطنون.

ونفتقد الوعي بتأليف الكتب السهلة التي تنظم المنهج العملي، وتشيعه بين أبناء المجتمع. إن مجتمعاتنا العربية في غفلة من أمرها عن الفكر العملي، ونشر ثقافته والوعي به فلا يدرك كل منا أنَّ العمل هو بناء الذات أولاً، فالطفل يستهل حياته العملية بالبكاء وتحريك الأعضاء، ثم بالرضاعة، ثم بتقليد المشي، وهكذا في سائر الأعمال الفطرية فالإنسان والحيوان ملهم لكيفية استخدامها، فالعمل ضرورة حياته فيما ذكرت، وفيما هو أدق في حياة كل حي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والله يلهم الحي في صغره ما لم يستطع على إدراكه حتى بالتقليد كالبكاء، والرضاعة، والضحك فإذا رأى وأبصر وتبصر، فإن الله يمتحن قدراته العقلية، بل ويترك لها مبادئ التفكير كتقليد الأكل والمشي وغيرهما.

والعمل هو بناء الذات والأنا المعتدلة والمفرطة، فالعمل وسيلة التغذية، ووسيلة الكسب، ووسيلة بناء الجسم، ووسيلة لإشباع الرغبة. وتلك يظفر بها الطفل العربي المعاصر والتربية المعاصرة تقف عندها ولا تتجاوزها. فتتناسى، الإنجاز والإبداع بتدريب الأطفال على الأعمال المنزلية الخاصة بهم أولا كتنظيم ألعابه وملابسه والمساهمة في تنظيم منزله، وعنايته بأغطيته وحجرته، ومن ثمَّ خدمة والديه فيما هو قادر عليه في أقرب الأشياء وأيسرها، حتى ننمي روح العمل وروح التعاون والتآزر، بل ننمي عنده الإدراك العملي، كيما يبلغ المرحلة العملية الإلزامية، وقد أعدَّ لها الإعداد المؤهل لبناء الذات بلا مساعدين وموجهين بل في خضم المنافسين أو المثبطين. فنحن في تربيتنا المعاصرة لم نفكر في عملية واقعية تؤدي إلى الاعتماد على الذات، بل نزع الاتكالية والتواكل.

والفكر العملي ضرورة ملحة تتواصل مع الإنسان عبر مسيرته الحياتية، ونحن المسلمين أحوج ما نحتاج إليها في زمننا المعاصر، لضعف العامل المسلم من ناحية الانفعال الشعوري والحماسة، ومن ناحية الضعف السلوكي الخلقي الذي يتعامل به مع أرباب العمل، ومع خبرائه ومنفذيه، وضعف التكوين الذهني عن العمل فنفتقد للتأمل العقلي في جوانبه السلوكية والمنهجية والإنتاجية، ومن أهم مكونات ضعف التربية أنها لم تفكر في فكر العمل وتطبيقه، ومنها ضعف المراكز التدريبية المتعاملة مع الواقع المباشر، والحاضر في الذهن.

ونحن لو تدبرنا مسيرة الفكر العملي في عالمنا الإسلامي، لأصبنا بالإحباط، فبعد التكوين الإسلامي الأول حمل العرب لواء العمل وبناء الدولة في المدينة المنورة، وحملوا راية الجهاد، وحملوا راية العلم، ثم تضاءل دورهم فيما بعد حتى قل منهم طلاب العلم، وسيطرت على السلطة أقوام أخرى، فحمل الترك راية الحرب، وحملت الشعوب مهمة المهن والصنائع، واستقطب التصوف كثيرا من أبناء المسلمين، مع أن المنظرين دعوا إلى العمل، وأكثر من وقف عنده ابن الأزرق في ((بدائع السلك في طبائع الملك)) لكن التنظير كان في قمة بعيدة عن العمل به، أو هو في منأى عن عقول المنفذين.

ومن هنا كان لزاما علينا أن نتعهد الكتاب والسنة والتراث بالاستنباط الفكري، ونقبس منها حتى يتمحور فكرنا حول التوجيه الرباني، فيكون مصدرنا الأول لبناء فكرنا المعاصر وتكون التجارب المستغربة علمية وعملية المصدر الثاني، فاستقراء الحكمة من تنظيراتهم ومناهجهم العملية وميادين العمل المكون للذهنية والعملية التطبيقية كل ذلك من الواجب أن نستفيد منه بما يتناسب مع واقعنا، فلا نأخذه صورة متكاملة، لبيئتنا فتكون الفرية، والذي لا مراء فيه أن العامل الغربي والياباني أكثر إنجازاً وإخلاصاً وتفانينا في العمل من العامل المسلم، فعلى مفكرينا إيجاد التنظير الواقعي التطبيقي المباشر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لكي نبني لنا فكراً عملياً منهجياً ينزرع في بيئتنا، ويتلاحم مع ديننا وواقعنا، ولا أقول عاداتنا، فالعادة إذا كانت من الدين، فهي تلحق بالدين، وإذا لم تكن منه فتخضع للعقل والتمحيص.

ولا ضير من زوالها إذا لم تكن ذات فائدة. وعلى المنفذين ترويض الفكر والمفكرين وتسخيرها لعملية بناء الفكر المنهجي الواقعي العملي.

أمَا المصدر الثالث فالواقع الحاضر، الذي يتمثل في تكوين الذهنية للنشء الجديد، وإيجاد الميادين العملية التطبيقية في حقول التربية جنباً إلى جنب مع الممارسة التعليمية، وإيجاد المراكز التدريبية في المدن الصناعية، وتركيز الإعلام عليها في فضائياته، وصحافته، بل في وسائله الترفيهية. إن الأمة الإسلامية يتأتى ضعفها من ضعف العمل الفردي والجمعي، بل من ضعف الفكر الباني لمكون الذهنية العملية، فنحن أحوج ما نكون إلى جهاد فكري وعملي نبني به حصوننا من الداخل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

محاور التعليم العالي

الفكر، العمل، الإبداع

التعليم في العالم الإسلامي مرّ بمراحل متعددة، قام في بدايته على المنهج الأكمل. فاصطحب التعليم الفكري مع التطبيق العملي بغاية ذات أهمية هي الإبداع وقدرة الإنجاز؛ فالسابقون كانوا يتعلمون فكر العبادة ويطبقونه عملاً، وكذلك الشأن في ممارسة التعليم اللغوي الذي أوجد الدراسات النحوية واللغوية، ولذلك فهم يعيبون التلمذة على الصحائف.

والأمر في الترجمة التمس جوانب التطبيق، فهم بدأوا بترجمة العلوم الطبية، والزراعية، والهندسة، أي يترجمون ما يحتاجون إلى عمله.

ثم توجه التعليم في العالم الإسلامي إلى التركيز على الفكر، فظهر لنا المذهب الكلامي والمذهب الصوفي، والفلسفات للعلوم الأخرى، وأصبح العالم عالماً فكرياً بمنأى عن العمل، مما حجب الفكر العملي، وتأخّر الإنجاز الاقتصادي والإداري.

ولما أشرقت شمس النهضة الحديثة، قام الأوائل فيها بمجهودات منهجية رائعة رائدة، فارتبطت البعثات بالعمل، وفتحت المدارس العملية مثل الحربية والزراعية والطبية في مصر والشام والحجاز، وكلها تبتغي المعرفة التقنية والمهنية، حتى الترجمة خضعت لحاجة العمل التطبيقي، وكان رائده الفكري رفاعة الطهطاوي في مدرسة الألسن، يقابلها مدرسة الحقوق، والمدرسة الطبية في دمشق وكل هذه المدارس أحيت العمل التطبيقي، وأحيت اللغة العربية، وروَّضت العلم المترجم للفكر العربي باستخدام اللغة العربية، لكن الاستعمار الإنجليزي أجهز على منهج المدرسة الألسنية، واحتفظت المدرسة الطبية في دمشق – التي تحوَّلت إلى الجامعة – بنموذجها الرائع، وما أسعدني بشهادة أحد أطبائنا السعوديين المتميزين حين مناقشة التعليم الطبي باللغة العربية، فقد أشار أن الأطباء السوريين عندما يلتحقون بدراسات عليا في الخارج، فإنَّهم لا يقلون مستوى عن زملائهم، بل يتفوَّقون.

لكن هذه الجامعة نقطة في بحر العرب كما يقولون؛ فأجلّ الدراسات في العالم العربي والإسلامي اهتمَّت بالاتجاه الفكري وأهملت أهم العناصر الثلاثة وفي عنصري العمل والإبداع اللذين يتجسّدان في الإنجاز المتميز.

فكأنَّهم يماثلون أسلافهم حيث يطلبون العلم للفكر لا للعمل، فنهضت البطالة، أو لنقل استمرَّت وتوسعت، وفقدنا الإنجاز، فالجامعات العربية قد خرّجت ملايين من البشر، لكن أين الأثر الإبداعي المتميّز لكل منهم في ميدان عمله؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إنَّ فقدان المنهجية التربوية له دوره الكبير الذي يربط أسس التعليم ومحاوره في ذهنية المتلقي، تلك المحاور التي تتمثّل في الفكر، العمل، الإنجاز المبدع.

وكل هذه لا تقف عند حدود أن تركيز العمل الميداني لطلاب الجامعة ينحصر في محيط الجامعة الدّاخلية، وإن خرجت تكون في مدينة الجامعة ذاتها مع إنّه يجب أن يكون الميدان العملي المدن الصناعية والمصانع العملية، والحركة الفكرية الاقتصادية، والوسيلة التطبيقية بالعمل اليدوي، ويستوي في ذلك علوم التقنية والعلوم الإنسانية، ولا سيَّما الإبداعية الفنية، والكليات الشرعية للمجتمع التي تقود فكره بتطبيق القضاء والدعوة. إن إدراك وزارة التعليم العالي بريادة وزيرها للقضية، وطرح الرؤيا المستقبلية للتعليم العالي أمر يدفعنا إلى التفكير العملي الإبداعي في مسيرة التعليم في بلادنا، ليكون هاجسنا تحقيق الغاية منه بمحاوره الثلاثة: المحور المنهجي، والمحور الفكري، والمحور العملي حتى نواكب عصرنا الحديث، وتتواصل التنمية بعول أبناء الوطن وسواعدهم، وتكون التمازج المنهجي والفكري والعملي، وحتماً حينئذٍ سيولد الإبداع، وما الندوات التي تعقد الآن إلا إضاءة لدروب عملية تؤدي إلى التخطيط بمراحله الثلاثة، وأقترح أن نستهلّ أمرنا بطرح منهجية تحتم على الطالب استيعاب هذه المحاور، كي يتخرج مشحوناً بالغاية الكبرى العلمية والإنجاز، ومواصلة الفكر المبدع.

الفرد بين البناء والمستقبل

كثيراً ما تتدخل الأحداث في أعمار المجتمعات ليحدث معها تغير في الواقع ينعكس على معمارية الفكر في تلك الفترة.

فالأحداث الكويتية قرعت أفكارنا، وأخذت موجات الفكر تترى علينا، وهى متواصلة مع واقعنا، أو هي واقعنا، ومحور تفكيري هو الفرد في مجتمعنا العربي وقد تواصلت وشائجه قديمها وحديثها فتراءى لي سيرها في نمطية واحدة، تَشَكَّل في إغفال المستقبلية، وأخذ الحيطة للشدائد، ولكن النفس العربية ميالة للدعة فهي تستشرف المستقبل البراق، وتدلف في أفقه، ولا تترقب الاحتمالات التي تزعج النفس، والتطلّع للمستقبل الزاهر، ولا ضير فيه إذا واكب الحذر والاستعداد، وربما كان النعيم المتواصل مع الأرض، وما حباه الله لبلادنا من خيرات، يؤدى إلى الغفلة التي أودت بدمار المدن في الشرق الإسلامي على يد التتار من سمرقند وامتداد المدن متواصلة مع العمق إلى بغداد بلوغا إلى دمشق، فلا عقلية إلا لفئة السلاطين والمحاربين محاربين أما الملايين من الشعوب فهم عاطلون مبعدون مهمشون.

أقول إنّ توارد الأفكار، جعلني أنظر مليا في الفرد المعاصر من خلال النموذج في كويتنا، فما دور الفرد الذي نتدبر واقعه من جانبي المواطنة والوفود للعمالة فيها؟.مع معرفتي المسبقة بأن هذا يحتاج إلى استبيانات ودراسات متعمقة أوسع من القدرات الفردية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولاشك أن هناك إيجابيات في هذه الدولة، كالاستثمار المادي، والالتفاف حول القيادة، والقدرات الكامنة التي تفجرت ببطولات الفداء عن الوطن ولكنها فردية، ولو أعدَّ لها لرأينا لها قوة أخرى.

كل ذلك جعلني أنظر إلى الفرد المعاصر، وأتساءل عن دور المواطن، وما دور الوافد، وما أثر كل منهما في الأحداث، وقبل النتائج لا مناص عن الفرد من حيث تأسيسه وبناؤه، ووظيفته الوطنية، وكيفية تكوين تركيبته الذهنية، فلابد من تأمل فلسفي نستقصي به الجوانب المتعددة كيما تكون تركيبة صالحة للبناء الوطني.

فالفلسفة اتحدَت في الهدف، واختلفت في السبل، وتقاربت في المناهج، فالنظر إلى ماهية الأشياء يُبحث من النظرة التكاملية الخارجية، إلى التجزئية والولوج إلى جوهر الأشياء، ومن المفكرين من يبحث عن الحقيقة الثابتة والجوهر الذي لا ريب فيه، وينطلق ليكمل جزيئاته، ويحاول ضمها وتركيبها حتى يبلغ صورة الكمال.

ونحن ننظر إلى الصورة المتكاملة اليوم لنحللها، ونصل إلى جوهر الإيجابيات، والسلبيات لتتبلور في الفرد العربي من حيث استهلاكه وإنتاجه.

عطاؤه لوطنه وبخله عليه، ثمرته وخسارته. وأجزم أنها قضية اليوم للعالم الثالث قاطبة، فهي تستحوذ على العالم الإسلامي والعربي، وتظله بظلالها، وتنشأ مع تركيبة الفرد النفسية والعقلية والمنهجية، وتتلون بها سلوكيات المجتمع عن عادات وتقاليد وأعراف ومصالح مرسلة، وتتأطَّر في عدم المنهجية اليومية التي تؤول إلى البطالة المقنعة، وتسلمنا إلى الضياع الإداري، وتنتج الضعف الإنتاجي، ولو نظرنا إليها نظرة تحليلية قريبة التناول، فأخذنا بظواهرها واتجهنا إلى بواطنها، فإن الإنسان العربي يعمل من بعد الثالثة والعشرين من عمره، بعد أن أهدر شبابه وحماسته، ومراحل بناء التركيب الذهني والشعوري، ومراحل تركيب العقلية المنهجية، في سطحية حيث تباعد التنظير عن التطبيق، ثم يستهل عمله خبيرا أو في منزلة الخبير.

هذا ظاهر المشكلة، فلو عدنا إلى مكوناتها الذهنية والاجتماعية، نجدها تتجذَّر في أعماق التركيبة العربية الأولى من بعد ظهور الإسلام، فقد قرأت في كتاب أُنسيته أن العربي أصبح في الدولة الإسلامية الأولى مقاتلا فارسا عاملا حاملا راية الإسلام في زمن الخلافة الراشدة، ومرحلةٍ محددة من خلافة الأمويين، وقد جنى جهده فكسب مالا وجاها وفيرين، وهما قد جعلا منه أميرا، فترسخت في أعماق ذاته، وتجذرت في مجتمعه، وأسقى نبتها الفُرس في دولة بني العباس.

فالأمير لا يخدم أميراً، والخلفاء والولاة يرغبون فيمن ينظر إليهم نظرة علو لا نظرة مماثلة فكان الانفصال بين الفرد العربي والعمل التنفيذي، وهذه النعمة بالمال الوفير، والجاه القدير سبب من تغيره وانتقاله عن العمل المباشر في الرعي والكد والتعب، والمعاناة في صحرائه، واستنزاف مائة من الآبار، وملاحقة أبله في الفيافي ورعي مواشيه، وإذا صرخ مصرخ لبوا النداء أفرادا وجماعات، زرافات ووحدانا، شيبهم وشبابهم، نساؤهم وأطفالهم، بخيلهم وسيوفهم وعصيهم وحجارتهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأناشيدهم تصدح على مسامعهم. فالكل متأهب أمًّا بعد الانفصال عن العمل ومعاناة التنفيذ فقد استسلموا إلى الرفاه والتهاون

فهم اليوم يتنادون للفرار ويولون الأدبار، ويخلون المدن، ويعطلون مصالح الدولة فكأنهم جبهة أشد من جبهة الثغور ومواجهة الأعداء، فأين التنظيم الداخلي الذي يحمي ويعين ويمد ويرفد؟.

لقد أصبح العربي يربي ابنه تربية أميرية، وتوارثوها على مر الحقب. الأمر الذي نأى بهم عن العمالة، والإدارة التنفيذية، وعن مصادر الرزق، وعن الخدمة، مما عزلهم عن ميادين القيادة فيما بعد القرن الثالث الهجري، حتى أن تكاثر الشعوب في المدن الشامية والمصرية أصبح عبئا على الدولة، فيقال إن الصليبين قتلوا سبعمائة ألف عالم وطالب علم في القدس، وملايين من المسلمين في الشرق فتك بهم التتار.

فما فائدة العلم بلا عمل؟ وما المانع من تدريب هؤلاء على الجهاد لمثل تلك الظروف لئلا يسلموا رقابهم ولكي لا يقذف بهم من أسطح المنازل، بينما تربية الفروسية متعارف عليها عند أعدائهم من الصليبين، والدول الإسلامية تتفاخر ببناء الأربطة، وتجمعهم في المدارس النظرية، وجلهم من الفقراء، الذين ترنو عيونهم لعطاء وال من الولاة، أو أمير من الأمراء، أو ثري من الأثرياء.

وقد انتقل هذا إلى التربية المعاصرة، فالعرب مائة مليون، أو يزيدون، ويستوطنون الأرض التي بارك الله فيها، وحيل بينهم وبين العمل، وأخذوا يستجدون وهم عاطلون، وإسرائيل الأقل من مليونين يوم نشوئها تستنفر جيشا أكثر من جيوشهم، وتنظيما داخليا في أثناء الحروب يضمن لهم الاستقرار، ولا يشغل القيادة العليا.

في حين أن التربية الأميرية نابعة من قناعة عن الوالدين أي قناعة اجتماعية، فهما يسعيان بعقلهما وجهدهما، وفكرهما ومالهما، ويضحيان بأنسهما وعلاقتهما في سبيل الأولاد فهما يرهنان حياتهما في جل البلاد العربية لتربيتهم، فيمتعونهم بأفضل الألبسة والألعاب، ويلحقونهم بأفضل المدارس، ويشدون المئزر ليفيا بمتطلبات المدارس، وهم في ضيق من أموالهم وأزمانهم.

والدولة تحشد عقولا مفكرة، وأموالاً طائلة، واستعدادات لا تحصى، فهل هناك مردود للأسرة وللدولة وللوطن؟ أم إن الفرد يقطف من دوحة دائمة الاستثمار ولا يثمر.

وعملية التربية تلك تتواصل حتى يقترب عمر الشاب من أربع وعشرين سنة. وهذه التربية تسلمنا مرحلة ابتدائية جديدة، هي المرحلة العملية، بمعنى أن الفرد العربي يستقى نظريا ثم تأتى مرحلة العمل، والأجدر أن تتناميا معا، وأن يوظف العلم والمعرفة للعمل والسلوك، لكن الشباب يقتحم حقل التجارب ويصطدم بأصحاب المصالح، ويصطدم بالعقول الخاوية والخالية والعقول المتحجرة، والعقول المتكبرة، ويظل في حيرة من أمره، ويكون الصراع بين المثالية والواقعية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المعاصرية، والواقعية المبتغاة، حتى يتدحرج في أعماق واقعية الروتين للمجتمع، وهي عملية تستغرق أكثر من عشر سنين حتى يستقيم عوده، وأغلب ما تستهلك منه اندفاعه وتوتره، وتمتص مثاليته وابتكاره ومقدرته الإنتاجية، فيكون مسالما وديعا، خبيرا في تهدئة الأمر، وإخماد اشتعالها، وإبعاد الإثارة، مبتعدا عن كل تجديد، محاربا لكل تغيير، متجذّراً مع كل صاحب مصلحة، له وشائج عملية مع المنفذين والقياديين، وهكذا يكون الفرد العربي عالة في شبابه، متهاونا في عمله، مداريا في إدارته، لا يدأب إلى الابتكار والإبداع، قليل الإنتاج ونتاجه يكون ضعيفا، نيئا، فلا هو صالح في ذاته، ولا هو قابل للتغيير.

ونحن نربي الوليد فينا تربية اجتماعية، فتقاليد المجتمع أرسخ في ذهنيته من التوجيه الديني أحيانا، فالكثير يجرؤ على مجاوزة العبادات الشرعية، لكنه لا يحيد عن أعرافه وعاداته، فكأن الحق الاجتماعي أولى من الحق الرباني، ناهيك عن الوعي العقلاني، وربما يدرك الإنسان خطأه الشرعي والعقلي، لكنه يتمادى في ترضية المجتمع بعاداته المرتبطة، كالإسراف في حفلات الزواج وغير ذلك مما يندرج تحت الأَسْر الاجتماعي.

ومن هنا يلزم علينا تربية الطفل تربية تقوم على الفطرة الدينية والاقتناع بالإيمان الغيبي والتوقيفي، ومحاولة القناعة العقلية التي كشف العلماء كثيرا منها. عن طريق التعليم والمعرفة المصاحبة للعمل، كما فعلت مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا يتلقون عن الرسول، ويعملون في المال. مثل تحطيم أوعية الخمر، وإنزال قدور لحم الحمر الأهلية في خيبر. إن جميع أنواع التشريع والقرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا ومن غاياته الاستيعاب المباشر والوعي والعمل به، وكان الصحابة علماء وعمالاً. كل منهم عامل في حقله أو في صناعاته أو تجارته ومع ذلك كانوا جيشاً متحفزاً دائماً، فكل علم أو معرفة لا فائدة منه إذا لم يطبق عمليا في مدارج الحياة.

لنبحث مثلاً عن الآيات والأحاديث في العبادات التي يعمل بها الطفل ويصحبه الإقناع بالعمل وتكراره، لنرى كيف يحثه الشرع على احترام والديه والعمل معهما، والعمل بآداب الأكل والمشي معهما، وخدمتها وتعرفهما على العلماء، فلا مانع من أن توجد حصة في الأسبوع لاستضافة أحد العلماء والقياديين المشهورين، ولو عن طريق تسجيل الفيديو ليكون له نبراسا ونموذجا، فما أحوج الشباب إلى ذلك؟

إننا لو فعلنا فإننا نزرع فيه عملية التنظيم اليومي، ليرتب له ترتيبا زمنيا، محددا بالدقائق والساعات وموزعا عمله بين القراءة المنهجية وغير المنهجية والتلفاز، واللهو البريء. ضرورة تكثيف الإعلام حوله في المدرسة والمنزل، ويقسم الإعلام وفق المراحل الدراسية ويشعره التلفاز بذلك، فينبهه للصلاة، وترتيب كتيبه، وتنظيم وقته، ووقت نومه. والاحتكاك العقلي، وتقدير الأشياء، ووضعه أمام قضايا قريبة منه وحلها فمثلا..

لو مرض والدك ماذا تعمل؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لو أشتعل حريق ماذا تفعل؟

لو أقفل الباب كيف تتصرف؟

كيف سلوكك مع والديك في المنزل؟

وتكون المعلومات عن طريق طرح الأسئلة، والتنفيذ العملي، وإدخال المعلومة عن طريق التصحيح. فمثلا كيف تصلي؟ ويشرع الطالب فيها ومنها يكشف الأخطاء له.

في مناقشة السلبيات والإيجابيات بتقصٍ دقيق للمجتمع، وعرضها على الشرع أولا وكيفية مخالفتها، وكذلك على العقل مثل قضايا الإسراف في الوقت، والمال والموائد، والملابس، وتكاسل العمال والموظفين وغيرها.

ويجب أن يهتم المنفذون بإيجاد مساحات شاسعة للعمل الشبابي.

١- كأن تلزم المؤسسات التجارية والفندقية والمهنية والمصحات، ونظافة المؤسسات الحكومية بالعمل بأجر الساعات، فلما يلجأ الطالب إليها يجد عمل ساعتين أو أربع ساعات في اليوم.

٢- أن يكون العمل إلزاميا كل سنة في حدود شهرين، وتعمل وزارة التربية والتعليم لإيجاد ميادين عملية مثل مراكز للتعليم المهني، وأعمال النظافة، ومنها تنطلق أعمال الصيف بإصلاح المقاعد الدراسية، وما يسمى بالترميم الكامل، بإشراف خبراء شأنهم شأن المعلمين.

٣- أن تكون هناك ورش أعمال مهنية تابعة للبلدية يعمل فيها متطوعون في الحدائق وتسويرها وإصلاحها وتسمى " خدمة المدينة " التي ينتمي إليها.

٤- أن تتاح الأعمال المهنية مساء كالمراكز العاملة حاليا ولكنها بتوسع، وينتج فيها الطلاب إنتاجا مفيداً، حتى ولو اقتضى إصلاح عربات فقراء، أو منازلهم، أو غيرها مع التنسيق بين المراكز والجمعيات.

٥- أن تكون ممارسة العمل إلزامية كأن يتوقف عليها الانتقال إلى المستوى أو يضاف بموجبها درجات.

٦- أن تكون مرتبطة بحياته الابتدائية؛ فما فوق الخامسة تبنى مراكز لكل مرحلة بما يتناسب معها، وتكون لها مجالس إدارة وإشراف متغيرة منتخبة من أعضاء هيئة التدريس.

٧- أن تتاح فرصة الأعمال في التجارة والزراعة من المقدار العملي الإلزامي، وفي الثانوية يمارسون الأعمال المرورية، والحراسة، والمراقبة العامة والأمن في المراكز الصناعية.

ومن هنا نجد التجربة تصحب المعرفة، والمعرفة خاضعة للممارسة والتطبيق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكلنا يعرف مشكلة التسرب والتيه والضياع ومثل هؤلاء توجد لهم مدارس كبرى تربوية مهنية تلتزم بالنظام العسكري حتى يمكن غسل مخه وإدخاله إلى ميدان العمل. وربما أن الجيش يسهم إسهاما كبيرا في الإشراف عليهم والاستفادة من عملهم المهني كأن تكون عندهم ورش للإصلاح وهكذا.

ونحن نعدم تربية المقارنة العملية، فما الذي جعل اليابان وكوريا وهونج كونج تخرج عمالا مهرة محافظين على الوقت لا بطالة مقنعة عندهم مع دقة في العمل والتزاما وحماسة؟

أما عندنا فيكون العامل ضعيفا غير محافظ على الوقت، يسعى للبطالة المقنعة مع عدم الدقة، وعدم المبالاة.

وإني لأذكر مثلا يوم كنت في مؤسسة صغيرة وعندي ثمانية عمال للنظافة من السعوديين حيث عانيت منهم معاناة كبرى، فلما أتينا بعاملين اثنين فقط وجدنا بوناً شاسعاً في النظافة والإنجاز. فلو ألزمنا المعنيين بدورة شهرية في النظافة والخدمة لاقترب نتاجهم من العمالة المستوردة.

إذن فنحن بحاجة لأن نبعث لجاناً للتعرف بخصائص المناهج عندهم كما بعثت أمريكا وغيرها، ولا ضير في ذلك فالحكمة ضالة المؤمن.

تلك العوامل المساعدة لبنية العقلية، فإذا أسلمناه إلى ميادين التجارب، فيجب تهيئة أجواء العمل لاستقبال الشباب، وذلك بالتحديث الإداري الذي يعتمد على طرح القضايا في الإدارات الكبرى والصغرى عن طريق المناقشة والحوار، وتصدر القرارات عن طريق التصويت أسوة بالجامعات، أما القياديون من الإداريين الذين يطول بقاؤهم فلا ضير في ذلك، لكن حتمية تغيير المنفذين أمر ضروري حتى يتاح له الاحتكاك بعقول جديدة وخبرات متنوعة، ولا نعني إبعاد الأوائل والاستغناء عنهم، وهضم حقوقهم، لكنهم ينتقلون إلى مكان أفضل لمن تثبت جدارته وتفوقه، ثم إن التمازج الإداري ضرورة، فالمبدع يرتحل عن عمله بعد أربع سنوات إلى إدارة أخرى قريبة من الأولى، فيكون تبادل الخبرات ويكون تهجين الإدارة أمراً حتمياً؛ لأن إبداع الإداري يخمد بعد أربع سنوات، والعمل الجديد يقدح فكره، ويشحذ همته، ولو نظر في بلادنا إلى الإدارة التي تقوم على هذا التمازج لوجدناها أفضل من غيرها.

ويجب الاهتمام بعناصر الرغبة والرهبة والتنافس، فلابد وأن يشعر كل فرد بأحدها، فهي دوافع الجد والإتقان، ودوافع التوا تر المطلوب لنجاح العمل.

فالقضية التي تمكث أكثر من سنة في المؤسسة يجب أن تعرض على مجلس أعلى فيها، ويبت فيها وفق التصويت من مجلس الخبراء. وهكذا في كل عقبة من العقبات، أو جديد في القضايا والمعاملات.

أما الملتحقون الجدد فتتاح لهم فرصة الحوار الذي يزيد من فكرهم، ويفيد الإدارة، ويؤخذ بيدهم، أو يؤخذ عليها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن مهام الدولة التنظيم الإداري الحركي، وأيضا الحذر على مستوى الأفراد والمدن بشكل تنظيمي، وفق دراسات مستفيضة. والاستفادة من تجارب الآخرين.

العمل والحياة

مدلول الحياة متلبس بالعمل، فلا حياة بلا عمل، ولا عمل بلا حياة، فإذا انعدم العمل نضب معين الحياة، فالكسل الذي استعاذ منه الرسول صلى الله عليه وسلم مرض يدفع بالإنسان إلى أن يكون ميت الأحياء، وكذلك الإعاقة البالغة التي تمنع الإنسان من ممارسة العمل لها تأثيرها، والتقدم بالسن إذا حجب الإنسان عن العمل فإنه من أثقال الشيخوخة، ولذلك استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الهَرَم.

والعمل هو حياة الفرد ونماؤه وعطاؤه، والذي يكون له القوة والمكانة من الجاه والمال، بل هو استثمار الدنيا للآخرة.

والعمل بمنهجه هو الذي يبني المجتمع، ويعزز مكانة الأمة، ويشيد الحضارات، والعمل المنهجي يبني الدول، والالتزام به يثبت الدول ويثبت قوتها.

والعمل وسيلة العلم وسبله، وهو المعابر الكبرى للمال، والدول التي ترعى العمل ترعى قوة أفرادها، ومن ثمَّ قوتها، فهذه الأهمية العظيمة للعمل التي لا غنى عنها، فأين فكرها في عالمنا الإسلامي؟ وأين منهجها وأسباب تطورها ونمائها؟

إنها جديرة بالدراسات الفلسفية التي تكشف عن ماهيتها، وهي جديرة بالدراسات الفكرية التي تغرس بناء التربية للأمة، وهي جديرة بالدراسات المنهجية التي تقوم على التدريب المنهجي للفرد والمجتمع، إنها جديرة بالأبحاث العملية المتواصلة اللازمة التطبيق، وقد دعاني التأمل في العمل إلى طرح فكرة: هي ما دور العمل في تخلف الفرد والمجتمع والدول والأمم، لاسيما في عالمنا الإسلامي؟ إنّ الإجابة تستبان لكل متأمل، بل إن فكر العمل يكشف لنا عن اتكالية عناصر المجتمع، وضعف الفكر فيه، ويكشف عن إسقاط عيوبنا الذاتية على الآخرين في سائر الاتجاهات الفردية والاجتماعية.

والعمل له دوره في بناء الحضارة المعاصرة، فقد تلاحم فيها العمل الفكري والعمل اليدوي معاً، وكان أن قام العمل على هيكل معرفي كبير من التدرج استهلالاً من القاعدة التي تقوم على الفكر، وكلنا يدرك نظريات العمل الرأسمالية والشيوعية، ومدى صراعهما المعاصر، لكن لا يخفى التفاوت بينهما في الإنتاجية، وقد شهدنا ذلك فالرأسمالية التي تقوم على شحذ همة الفرد هيمنت لقوة عمل الفرد فيها وكثرة حوافزه، فكان لها البقاء، وهي لا تقوى على الوقوف في وجه الفكر العملي الإسلامي لو أتيح له الاستنباط والتوجيه الفكري، والعمل به ثم تطور المنهجية فيه، وإحياء روح الرقابة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الداخلية الإيمانية، فضلاً عن الحوافز المادية والمعنوية. والذي يتمثل لي هو الفراغ الفكري العملي في عالمنا الإسلامي، وهو أولى بالإحياء كالأرض الموات، وهو الوسيلة الكبرى لانتشال أبناء العالم الإسلامي من الضعف والتخلف.

ونحن لو تتبعنا معالم الفكر في اللغة أولاً لوجدنا لفظة العمل توحي بمكانته:-

العمل في اللغة:

العمل هو:المهنة والفعل، وعمل الرجل أي قام بالعمل عند غيره

واعتمل الرجل: أي قام بالعمل لنفسه، وقديماً مدحوا الرجل العامل المنجز الذي يخدم نفسه، ويبنى حياته يقول الشاعر:

إن الكريم وأبيك يعتمل فيكتسي من بعدها ويكتحل

فالاكتحال من الكماليات: أي فالعمل والاعتمال يؤديان إلى الترف والثراء، أما الاستعمال فهي الخدمة الوظيفية المعاصرة، وقالوا عنها قديماً: الاستعمال خدمة السلطان.

والاعتمال هو يشمل أوجه العمل للفرد في العمران والصناعة والزراعة، "ومنه رجل عمول إذا كان كسوباً، وهو ما يسمى برجل الأعمال "، والعمل يكون بالذهن أيضاً، لكنه يرد على وزن أفعل مرتبطاً بالوصف المراد." أعمل فلان ذهنه في كذا وكذا إذا دبره بفهمه، وأعمل رأيه وآلته ولسانه"

والاعتمال والعمل والعمل الذهني كلها خاصية حياتية لكل ذي حياة، فهو مطبوع على العمل.

فالله المدبر لهذا الكون جعل خاصية العمل ملازمة لخاصية الحياة، فليس هناك من كائن حي يُخْدَم ويُسعى إليه فلابدّ من عمله، حتى ملكة النحل فإن لها إعمالا خاصة بها حتى في عملية التلقيح، والكل لابد له من السعي للغذاء، حتى ممارسته بالأكل عمل، والعمل خاصية داخلة في تركيب الكائن الحي، بل في أصغر مكونه، إنها الخلية التي تحوي عناصر الحياة، والطفل يولد عاملاً فالصراخ عملية للتنفس، والحركة للمران، حتى البكاء، وهو يُلْهَم عملية الرضاعة حتى يتمرس العمل الضروري له، والتربية تقع في خطأ حين تتدخل الإتكالية عند الأطفال. فلو كانت التربية تقوم على شحذ العمل من الطفل لكان في ذلك خير دُرْيَة نافعة وممارسة تجريبية، وخير من ذلك ارتباطها بالعمل الذهني أولاً ثم بعد القناعة تتأتى الممارسة فهما متزامنتان معاً.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العمل والفكر

العمل هو القلب النابض في حياة هذا الكون، والعمل هو حياة الفرد وسعادته، والعمل هو الذي يبني الذات والمجتمع، وعمل الإنسان غير عمل سائر الحيوان، فعمل الإنسان، يرتبط بالعقل وتتواصل معه، بينهما وشائج قربى وتراحم وتلاحم.

والعمل هو من أمانة التكليف الرباني الذي حملها الإنسان، فكم أحيا الفرد العمل فرفع شأنه، وأعلى مكانه، وارتقى به إلى أسباب الجاه والمال!

وكم بنى العمل من أمم وجعلها تعلو شامخة، وتكتسح أمما أخرى!!

وقد أدركت الأمم دور العمل، فقعّدت له فلسفات تتعلق بالأيديولوجيات، فهناك العمل المرتبط بالماديات كالشيوعية، وهناك العمل المرتبط بالذات الفردية كالرأسمالية، حيث تأخذ منه الدولة ما يعادل خدماتها العامة وحمايتها.

والفارق بين الاتجاهين ظهر وبان، فالأول تداعى واندثر لأن العمل لم يقم على العقل المتواصل مع المتطلبات الإنسانية الفردية والشرائح الاجتماعية، بينما الرأسمالية أخذت تصارع لأنها قامت على العقل الذاتي، وذلك عنصر مهم في نجاح العمل، وقد حدَّت الأنظمة من غلوائه، فنظمت العمل بأنظمته، ومع ذلك يفتقد إلى عناصر جوهرية، فهو يفتقد الإنسانية، ولم يراع الجوانب الاجتماعية، إلا ما كان عن طريق الضرائب الاجتماعية فقط، وتتجلى الجوانب الكاملة في العمل في مثالية العمل عند المسلم.

فنحن حين ننظر إلى العمل الإسلامي، ونتفحص عوامله ومقوماته نعجب من هذا التوجيه الرباني الذي يقوم على الحث على العمل، فالعلم الشرعي دعا للعمل الديني والدنيوي، والعبادة تكون بالعمل في إطار العبادة المفروضة، وتكون العبادة بالعمل لإصلاح الدنيا في عمل الفرد اليوم الذي يكسب منه الرزق الحلال.

والعبادة تراقب العمل الذاتي، فالإخلاص والتفاني له جائزة كبرى في الآخرة، فضلا عن الحصاد المادي المكتسب في الدنيا، والعمل الإسلامي يراعي المصالح الفردية، ويتدفق ويتطور كيما يبني المجتمع.

والصحابة رضوان الله عليهم يتعلمون عشر آيات من القرآن الكريم للعمل بها، ثم ينتقلون إلى آيات أخرى، إذن كل علم في الإسلام يكون وسيلة للعمل.

لكن هل الدول الإسلامية، والمجتمعات الإسلامية، والفرد المسلم أخذ بالتوجيه الفكري للعمل من جوانبه المختلفة الإيماني والعقلي والفردي والاجتماعي؟

لا أظن أن هناك من يجيب بنعم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وربما يوردون شبهة للمعاذير التي يعتذر بها الفرد، فهو يلقي معاذير تلك الشبهة التي تتمثل في هيمنة الغرب على الناحية الاقتصادية والصناعية، أقول: إنها شبهة واهية، فالله وضع نواميس الكون أمام كل فرد في هذا الكون؛: من أراد أن يعمل فإنه يصلح ما حوله من متطلبات الحياة، ويتطور حتى ينمو.

وليس معنى ذلك أن يحتجب عن التقنية الحديثة، بل من العمل أن يسعى لكسبها، والعمل بها لكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

والدول الإسلامية تتآزر بالعمالة، ففيها الدول الثرية بالمال وفيها الدول الثرية بالأيدي البشرية، لكن هل هناك توجيه فكري ومنهجي للعمالة حتى تفيد وتستفيد؟

لماذا العامل من البلاد الإسلامية أقل إخلاصا وتفانيا من العامل من عمالة الدول الأخرى؟ أليس ذلك نقص في الإيمان والتربية والتفكير؟!

فهل نحيي العمل الإسلامي بالتنظير، والاستنباط، ووضع المناهج العملية؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المنهجية الزمنية

الزمن هو مساحة العمر لكل الأحياء، هو ثروة الفرد الإنساني، تلك الثروة التي يشترك بها مع الآخرين كمشاركته لهم الهواء والماء، والزمن هو الذي يمتلكه الفرد، ويخضع لإرادته وقدرته، وحسن تصرفه هذا، فالزمن الذي يتسرب كماء الجدول في هدوء يتدفق من البركة حتى تخلو وتجف، والزمن هو وعاء الإنجاز، ووعاء السعادة، وهو وسيلة الغذاء الفكري والمادي، والزمن فردي وجماعي، فإذا ما استثمر الفرد زمنه وبنى فكره، وأنجز عمله فإنه يبلغ درجات في الجاه والمال بعد توفيق الله – وإن لم يكن مؤمناً –، فعمارة الأرض وتوفيق الله للعامل لا يقتصر على إيمانه، وإنما الإيمان يزكيه، ويباركه، ويدَّخره للآخرة، فالمؤمن ينال السعادتين الدنيا والآخرة، وأما العامل غير المؤمن فإنه ينال حرث الدنيا فقط، فيكون ثراء الفرد نتيجة عمله في مساحته الزمنية سواء الثراء الفكري أم المادي، ومن أكثر العون له تلك المنهجية التي تؤطر العمل، إلى جانب اعتماد العمل الزمني على الوعي المعرفي، وأفراد المجتمع إذا ما نالوا حظاً من التفاني في العمل فإنهم يمثلون المادة الخام، أو القاعدة الصلبة الصلدة التي تبنى عليها قوة الجماعة.

والزمن الفردي لا يعد بحساب الدقائق والثواني، إنما يعد بالإنجاز والإنتاج.

ونحن إذا نظرنا إلى الزمن الجمعي، فهو يقوم على التربية الاجتماعية، والإسلام كفيل به لكن المسلمين عطلوا العمل به – أما غير المسلمين من العالم الغربي والعالم الشرقي – فإنهم استثمروا المساحة الزمنية للجماعة، فكل فرد له منهجه الزمني الذي يتعاضد مع ذوي مؤسسته، فأصحاب المصنع الواحد إذا تآزروا على الإنجاز، وكلٌ منهم استثمر وقته في منهجية، واعتمد على وعي بمعرفة فإن ذلك كفيل بنجاح هذا المصنع، فإذا تكاثرت تلك المصانع فإنها تشكل قوة المجتمع وتمثل نتاج الزمن الاجتماعي، وإني لأشيد بفاعلية دولة إسلامية أخذت تنافس محور النمور تلك الدولة هي ماليزيا، ونحن بمقارنة واعية بين دول العالم العربي والإسلامي نجد مساحات زمنية أشبه ما تكون بالسراب، أو مياهاً نهرية تتدفق بلا استثمار، فنجد أن المنهجية الزمنية في أوروبا وبعض الدول الآسيوية أكثر وعياً وعملاً بالمنهجية، وليس قائماً على الوعي فحسب، وإنما على غرس تربية منهجية شاملة.

أما عالمنا العربي فلم يعنَ بالمنهجية الزمنية مع حث الدين الحنيف عليها، فهناك البطالة المقنعة في المراحل التعليمية، وهناك التسيب في العمل الوظيفي وهناك مخالفة الدين في المواعيد، وهناك السرقة المحرمة للزمن عند جلّ الموظفين، وليس هناك من يحاسب نفسه على إنجاز الزمن، فضلاً عن فقدان المنهجية الزمنية بل أكثر من يفني زمنه في البحث عن المعاذير، وهو ببطلانها بصير، إذن فعملية استثمار الزمن مفقودة بنسبة كبيرة.

والمنهجية الزمنية جديرة بأن ترتقي لتكون مادة منهجية في التعليم العام، فهي إذا شملت الأفراد ترتقي لتكون منهجية زمنية جماعية. فتدريب الطفل على تقسيم يومه إلى تعليم عام، وتنظيم ذاتي، وتحديد زمن لمذاكرته، وآخر لثقافته،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وجزء منه للسماع، وتحديد فترة نومه ويتطور ملء أزمانه بتطور عمره العقلي والزمني، ومن هنا يدرك أن زمنه وعاء لاستيعاب متطلبات حياته، ويدرك أهمية العمل بل يكون العمل غريزة، وتكون هناك مقارنات فعلية بين زمن ضائع وزمن مستثمر.

ومن الخير أن يكون هناك إعلام موجه لترشيد الزمن وإطار لمنهجيته، كيما يكشف عن ثمرة العمل على النفس والفكر والجسم والمال.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المنهجية العقلية

العقل هو منحة الله سبحانه وتعالى، بل هو الخصيصة البشرية من الرب جلَّ جلاله، وهو وعاء الأمانة التي حملها الإنسان، ومن أجله خلق الكون العلوي، وما فيه من أجرام فلكية، ومخلوقات مجهولة، ومن أجله خلق الكون الأرضي، ومن أجله خلق التكوين الإنساني؛ قال تعالى: (وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون) "الجاثية آية رقم ١٣"، ذلكم العقل المخلوق الكبير الصغير، الكبير للإنسان وجميع مخلوقات الله، والصغير أمام خالقه الله تعالت قدرته، ومن هنا تأتي وظيفة هذا العقل، فهل هو قادر على استيعاب هذا الكون؟ أقول:

إنّ المخلوق لا يستوعب ما يحيط بخالقه، ولا بقدرته، ومن هنا فإن التوجيه الربّاني ضرورة حتمية لهذا العقل كيما تستنير له السبل، فالله أبان لنا قدرته ومكانته وأوضح لنا السبل، ومن هنا كانت القناعة بعبادته أمّا أولئك الذين لم يهتدوا بتوجيه رباني فإنّهُم تاهوا في فيافي الفكر الفلسفي، وتاه أتباعهم من قبل آلاف السنين إلى اليوم.

ولذا كانت حتمية تعليم الأمور التوقيفية وزرع العقيدة السليمة في الناشئة. وليس هذا فحسب بل تجديدها وزيادة الإيمان الذي ينمو بتلاوة القرآن والتدبر في ملكوت الله الخالق البارئ المصوّر المدبر، وكل علم من العلوم يستبان من خلاله قدرة الله اللطيف العليم.

والتوجيه الرباني قد أعان العقل في أمور كثيرة في الكون والحياة، فالواقع أن الإسلام كان عوناً للعقل، وترك له حمل الأمانة في تنفيذ الأوامر، وإعمار الحياة والأرض وتلك المهمة من الصعوبة القصوى التي تثقل كاهل الإنسان، ولاسيَّما في زمننا هذا، فالعقل البشري لا يستطيع الاستيعاب بالاحتواء الكامل، لكنه قادر على التعامل بالاستعانة بالمنهجية، والمنهجية العقلية يفتقدها مسلم اليوم والعربي المسلم بالتحديد في الزمن الأقرب، بل أرى أنه لم يأخذ بالتوجيه الرباني، فأين العلم الموظَّف للعمل، وأين الإخلاص والتفاني؟ بل أين العمل لجل أفراد المسلمين؟ فلو حصرت البطالة الظاهرة، والبطالة المقنَّعة لذهل الإنسان، فأين العقلية المسترشدة في تصريف الأموال؟ وأين العقلية العربية المسلمة الصامدة في وجه الزحف الفكري؟ وأين العقلية القوية التي تقف صامدة في وجه التيارات الإعلامية العاتية. فلا صخرة تتكئ عليها بعد الله، إلاّ المنهجية العقلية المتدبرة أولاً، ثمَّ الموظفة ثانياً.

أليس من حق المنهجية العقلية علينا أن تدخل في أولويات التربية حتى نزرع عقولاً قادرة على التمحيص، والتدقيق، والاستيعاب، والرفض ثم العمل بقدرة علمية، وعزيمة قوية، ونية سليمة؟ فما أحوجنا إلى إدخال مادة المنهجية العقلية في التعليم العام، ولا يستطيع فرد أن يكون مقرراً إنّما تكون جمهرة من العلماء. وبيوت الخبرة وحلقات النقاش، وحراك الحوار الاجتماعي من مستندات العقلية المنهجية في الفكر العربي العامل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العمل في مسار الحب لله

العمل عنصر تكويني في ذات الإنسان؛ فهو تفاعل لمكوناته الروحية، والغريزية، والحسية، كلها تتجسد في العمل حتى العقل له عمل معنوي، يتمحور في التوجيه الشامل لعمل الفرد.

والحب: علاقة روحية تنبثق مكوناتها في الفرد بإحساسه بالقيم التي تربطه بما حوله، فهي في ديننا أخذ وعطاء ثم تعال على بعض الهفوات، وتجاوز إلى إنسانية أعظم وحب أعلى إلى رضوان الله فوق كل هذه.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وجعله كياناً مهيباً مجهولاً عّلِم منه القليل، وفي ذلك عبرة، وجهل منه الكثير وله عظة بهذا المجهول كما قال تعالى "وفي أنفسكم أفلا تبصرون "وسخر له السموات والأرض وما بينهما ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ الجاثية ١٣. وذلك كرامة وحب للإنسان، وأَمر العبدُ أن يكون شكوراً وحب العبد لله يتجلى بالعمل، فيعمل بأوامره، ويجتنب نواهيه وزواجره. ويختص حب الله بأنه لا يبتغي مصلحة، ولا جزاء من عبيده، فمن عمل فلنفسه ومن أساء فعليها.

ومن حبه تمنِّيه الهداية للبشر " لعلكم تذكرون "، والله ألهم آدم عليه السلام العمل، وجعل حياته في كد ونصب، فألهمه الله كيفية الحرث والبذر، والحصد والتذرية، وتصفية الحب من الشوائب، ثم الطحن والعجن والأكل.

وهكذا فإننا لو تأملنا الأعمال التي كونت اللقمة قبل أن نبتلعها لذهلنا، فالحياة عمل، ومن لا يعمل فهو في عداد الأموات والجمادات، ولا سعادة بلا عمل، فهؤلاء المقعدون مع تأمين المعيشة أهم أسعد أم أولئك العاملون الكادحون؟

وفلسفة الحب تقوم على العمل الذي يولد المنافع، ويزرع الخير، ويكّون تبادل المصالح، ويتجذَّر منه السلوك الفردي والجماعي.

والدعوة الإسلامية قامت على الحب وإدراك ماهية الحب، لله بالعمل بشرعه وعمارة أرضه.

وحب الرسول صلى الله عليه وسلم لله انبثق منه حب الإنسانية، فتجاوز الثأر والحقد، فلم يرض أن يطبِّق الجبال على أهل الطائف ولم يرضَ بهلاك أهل مكة، إنه يتفانى لإنقاذ البشرية من النار " فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث آسفاً " الكهف ٦.

وحب الرسول عليه الصلاة والسلام يتبلور بالعمل الجاد بالقول والعمل حتى عمله في الجهاد، وفي السفر، وفي بيت أهله، وفي تهجده لله، وإدراك ماهية الحب للرسول بإتباعه، وفى مقدمتها العمل لحب الله، والعمل من أجله، ثم حب نبينا بطاعته.

ويكون حب الرسول أحب من النفس والمال والولد، وقد فعل السلف ذلك؛ فأبو بكر صدَّق الرسول صلى الله عليه وسلم محبة وثقة فيه، ثم تجلت المحبة لله في سلوكياته بعد أن تلبس التقوى، وانغمس في اليقين، فأخذ يعتق العبيد، وينقذهم من التعذيب، بل إن حب الله زرع فيه حب الإنسانية، فاندفع لدفع المال في سبيل إنقاذ بلال رضي الله عنه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهذا عمل أي عمل، وأبو بكر يسمو ليعلو بحب لله عن الأنانية والقرابة، فهو يهجر مسطحا لما خاض في حادثة الإفك عن عائشة رضي الله عنها، ويقسم ألاّ يعنيه في هذه الحياة، لكنه يستجيب للنداء الرباني ويعفو " وهو بذلك يجعل العفو سلوكاً، وفوقه بما يكد فيه ويكدح، فأبو بكر عامل في التجارة حتى وهو في الخلافة

والدعوة الإسلامية، والحب لها وتعلم علمها لم يكن حاجزاً عن العمل، فالصحابة كلهم يمارسون العمل التجاري والزراعي، وعندهم اكتفاء بالصناعة اليدوية كعمل السيوف وغيره، والضعيف منهم يقوم بالخدمة حتى الحطب، وكلهم يتعلم الفنون الحربية كيما يلبي نداء الجهاد، فهم جيوش احتياطية.

والعمل فيه عنصر الحب للذات يحقق توازنها. وفيه عنصر الحب للأسرة فهو يقدم لهم خيراً، وهم يتفانون في محبة الله عن طريق الحب الإنساني بالصدقات فقد أكرمهم الله بأن جعل ذلك في محبته، وادَّخَر لهم الأجر.

فالعمل يمثل عصب الحياة للفرد المسلم، وللمجتمع، والأسلاف يعملون بذلك حتى العلماء التجار وما أكثرهم، ولا يضر أو ينقص من ذلك مقولة الشافعي التي يكررها الكثير بلا وعي" لو فكرت في صلة ما حللت مسألة " فهو يجعل فكره محصوراً فيما يعمله بحسب، ولا ينسخ العمل.

والعرب في شبه الجزيرة نالوا ما نالوا بالعمل حتى حروب الفتوح، فلما تكاثرت عليهم الأموال، وتوارثتها الأبناء خدرتهم وخذلتهم، فتواروا عن العمل وعن التأثير في المجتمع الإسلامي.

أن تكون السلطة والنفاذ والهيمنة تكون لأولئك العاملين من الشعوب، حتى وإن جلبوا من أجل الخدمة فقد هيمنوا من أيام المتوكل ٢٣٢ هـ وتوج ذلك بدول المماليك حتى عام ٩٣٢ هـ. فالمتأمل في حياة الشعوب الإسلامية عبر العصور يدرك ضعف العمل وإنتاجه، فلا منهجية له، ولا تنظيم، بل لا وعي به. وفي ذلك مخالفة للدين الإسلامي الذي يحث على العمل والتفاني فيه، والإخلاص له، وإن ذلك من محبة الذات، والمجتمع، وفيه رضا الله ومحبته، ويحث على دفع الأجر قبل أن يجف العرق

ليحفظ التوازن في الحياة. وإنتاجية الفرد لبنة في إنتاجية المجتمع، فيجب أن يكون الفرد منتجاً قوياً، وفي ذلك قوة للمسلمين، فيتجلى الحب لله بالعمل.

ونحن اليوم في عصر التنافس، فهل نحن مجتمع عامل يعمل بحب وإخلاص؟ وما أهمية ذلك في عصرنا الحاضر، للفرد والوطن والأمة؟

ذلكم أمنية كل فرد، وكل مجتمع، وما علينا إلا أ، نبني ذهنية قادرة، وتربية عملية تكون وسيلة إلى ذلك، ومنهجاً عملياً يستوعبه الطفل، ثم الشباب، ثم المجتمع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإعلام والعمل

أرى أن العمل سبب رئيسي في تأخر أمتنا العربية والإسلامية فالعمل يبني الفرد، ويجعله منتجاً لا مستهلكاً، ويبني المجتمع، ويجعله متآزراً لا متضاداً ولا متنافراً، ويلتئم به نتاج الأفراد ليكون منبعاً لنتاج اجتماعي متكامل، والإعلام اليوم يحمل راية الهيمنة، والتوجيه، والتغيير والتلاحم إذا أراد، والفرقة إذا رغب أيضاً.

والإعلام يصنع أطفال اليوم، ويصحبه أكثر مما يصحبه والداه، فهو قد فرض نفسه ليلج إلى أعماق البيوت فيختطف أطفالنا وتربيتهم من أبويه، فالطفل يسمع ويرى من العروض التلفازية أكثر مما يرى من والديه.

ومن ثم من واجب الإعلام للطفل أن يضع أهدافاً تتواصل مع أهداف المجتمع، فيغرس الإيمان، ويغرس العمل المتصل بالحب والإنتاج، ويغرس المنهج المنظم والعقلية المتأملة المتفاعلة، وينمي الحب للجميع في ذات الفرد: الحب لله الحب للإنسانية، وهكذا يكون هاجس الإعلام للطفل يولد القناعة لدى أطفالنا أن لا حياة بلا عمل، وأن العمل ضرورة حتمية للفرد، ويتدرج الإعلام معهم في إيجاد العمل الذي يناسب الطفولة في مراحلها من الأعمال الصغرى للبيت والعلم، حتى الأعمال الكبرى.

ونحن هنا نواجه مشكلة كبرى تزرع في نفوس أولادنا التهاون في العمل، وهي عدم الحاجة إلى العمل بأجرٍ للطفولة المتأخرة، ومرحلة الشباب الأولى.

وكان حرياً بنا أن نقنعهم بالعمل وإن قل الأجر، وإن لم يكن في حاجة إليه لضرورة العمل فحسب، وليكون منتجاً في مجتمعه مفيداً للآخرين، فيحب عمله، ويحب من أجل عمله، ويكون مبتغاة أيضاً لوجه الله، فما أيسر اقتناع الشباب بذلك!

والإعلام عندنا بل في البلاد الإسلامية يفتقد التوجيه للعمالة، فيجب أن يكشف عن أهدافها، وكيفية العمل ومناهجه، ومنطقه الفكري وأسلوبه للعامل والمعمول له وللأمة.

والإعلام يرصد موطن العمل والخلل فيها، ويسعى لمعالجته بالتوجيه السليم، فالمدن الصناعية موطن من مواطن الإعلام، بل هي مسرح من مسارحه، والإعلام يحتضن العمالة الوافدة، ويخاطبهم ويسعى لإقناعهم بالإنجاز والتفاني في العمل، وفي ذلك صلاح لهم، وصلاح لدولتهم، وصلاح لدولتنا مثلا:إذا أراد به الحب لله، ثم حب للإنسانية المسلمة، ولقوة أمته.

والإعلام عليه أن يتأتى بالبرامج الممتعة ذات المنفعة التي تستقطب العمالة كيما يخاطبهم إعلامنا، ولا يقتصر ذلك على التلفاز والإذاعة، بل الصحافة، فكثير منهم يستوطن في بلادنا عدد سنين، ويخرج لم يطّلع على صحيفة واحدة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإعلام يكون حاضراً في وعي القادم لبلادنا، فيعرفهم عن كثب ويقنع بالمنجزات التي أنجزتها دولتنا، والعمالة في بلادنا بمثابة السياحة في بلاد أخرى، فيجب أن نعد لها إعلامياً كيما نرغب في بلادنا، ويكشف لهم الإعلام عن خصائل الخير وسبله لهذا المجتمع الطيب إن شاء الله، الذي في جلّه يحب الله، ويبغض له، ويتمنى الخير لكل فرد مسلم.

نريد من إعلامنا أن يكون فاعلاً، فيزرع حبنا في أفراد ومجتمعات أمتنا الإسلامية، ولاسيما أن وبلادنا حياض مشرعة لهم من سبل شتى، فهم يفدون إليها من كل حدب وصوب وعلى كل وسيلة، ويكونون في ضيافتنا أمناً ورعاية وإعلاماً.

والإعلام مسئول عن توزيع النشرات الإعلامية، والكتب التي تدعو إلى صفاء العقيدة، وقد ثَبّتِ الفكر النابع من هذه البلاد القناعة الفكرية، وألا يكون فكرنا ضامراً في نفوسهم، وينظرون إلينا على أننا نحمل السذاجة، وأننا مازلنا على فطرتنا البدوية التي لم تفتق بالفكر الحضري، بل لا يأبهون بمؤلفاتنا وجميع إبداعاتنا التي تفوق، أو تنافس الآخرين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثالث

بنـــاء العقليـــة المنهجيـــة

بناء العقلية العربية

عاشت العقلية العربية في خضم الفتن التي طوقت الإنسان في الجزيرة العربية، وأثقلت نفسيته، وأذهلت عقليته، وارتطم بتياراتها، وصوبت إليه فوهات المدافع، وأخذت تضرب فيه عواصف الأيديولوجيات، وأخذ يأزُّ من مرجل الإعلام المضلل التي ما تفتأ دول العالم أن تشعل ناره.

لقد بلورت الأحداث الأخيرة الإنسان في الجزيرة أو قل الإنسان الخليجي متمثلا شاخصا، فهذا ابن بجدته، وجاره، ورفيق دربه، لا يأبه بإنسانيته ويستذله ويستهين به في سبيل غرفة من نفط، أو حفنة من ذهب، أو خزنة من دولار.

كما بلورت هذه الفتن الإنسان العربي في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، فظل حيرانا يرسف تحت مظلة إعلامية سوداء تمطر عليه الفرقة، وترعد عليه بالويل والثبور

ونحن لو تقصَّينا لب القضية، هل نعود بها لتمحور القومية؟، أم لتفوُّق الإقليمية والقطرية وهيمنتها؟ أم للفراغ الإيماني الذي يوازن طغيان بعضها على بعض.

وربما نعيده للعظمة الفردية التي تتجانس في الإقليمية بدل القبلية، فتشعب الأمة العربية إلى قطرية إقليمية، تتبارى وتتنافس ثم تتصارع نتيجة لنظرة العلو التي غُرِسَت بذوره بمآثر الفخر القديمة،

إذا بلغ الفطام لناصبي تخرّ له الجبابر، ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرف غيرنا كدراً وطينا

إنهم أبناء عمومة الشاعر الجاهلي المتعاظم في فرديته وقبليته، الفاقد للإنسانية، فهو من قبيلة تغلب التي انداحت إلى العراق، فهل أُلهي صدام حسين عن كل مكرمة.

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم يرددونها أبدا منذ كان أولهم، أو هو يغير على الأبعدين، فلما لم يقدر أغار على عمرو أخيه. وهكذا يجعل من قصيدة عمرو بن كلثوم الجاهلي دستورا له:

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

فهو ورث غزو الكويت عن عبد الكريم قاسم، أم إننا في عالمنا العربي خضعنا لثنائية تربوية، جعلت الأمة شرائح من معادن مختلفة لا تلتقي، فلا مودة تقرّب، ولا حسن عشرة يجمع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أم ظلمنا شعوبنا الذين يرزحون تحت تضليل أو إرهاب، لكن ألا تكون الفئات الحاكمة بأمرها شريحة من شرائح تلك الشعوب، أعتقد ذلك، غير أن ثنائية التربية التي انزرعت في وطننا العربي والإسلامي، قد أفرغت مناهجنا من لحمتها الإسلامية، حين زرعت القومية وطعمَّتها وهجنتها بالإقليمية، فنحن في عالمنا أمام كائن متحلل من أمته الإسلامية، فنجح القوم بتحطيمها عن طريق القومية التركية، والعربية، والكردية، فتمثلت الأمة العربية بجامعتها، لكنهم صهروها بالإقليمية، فقوضت القومية، فأصبحت الأقاليم العربية متنافسة متفاخرة متناحرة، فتحاربت وتفككت وانحلت القومية، حتى الإقليمية تحمل عناصر الفرقة وأكسيرها، فكلَّما كبر الإقليم توزع إلى أقاليم، حتى تبلغ المدن المتقاربة، والقرى المتجاورة فنحن في سنيّنا هذه وأيامنا هذه وساعاتنا هذه ننتمي إلى الإقليمية أكثر من الروابط العليا، فهذا عصر القطرية أو الإقليمية، فهل من جامعة عربية، أو جامعات أكاديمية، أو وزارات تربوية تتضافر لتحطيم الإقليمية هذه وتبني إنساناً مسلما عربياً؟

إن الحدث تعاظم حتى كان أكبر من عقلية المثقف والمفكر حتى رأينا مصداق المقولة: " إن رجل العلم لا يرى في أي مكان نفسه ضائعا تماما إلا عندما يواجه قضية الإنسان؛ في استطاعتنا تحطيم الذرة، وتحليل الشعاع الذي يأتينا من أبعد النجوم، وتسخير الكهرباء، ولكن عندما يلتفت العالم إلى الحياة ولاسيَّما إلى الإنسان تصبح فورا الصعوبات لديه أكبر، فلا الحياة ولا الإنسان يخضعان بالطواعية نفسها لاختبارات دقيقة))

العلاقات الإنسانية ص١٠

نحن ندرك إننا لن نبلغ تحديد الأسباب بدقه عالم التجربة والتقنية، لكننا نتلمس. فالأحداث الأخيرة برهنت على أن الإنسان العربي لا يحمي إنسانيته ودمه العربي من العربي ذاته، إن الدم العربي لم يحم القبائل العربية من التناحر والتقاتل، فالأقرب نسبا (تغلب وبكر) تتحاربان، وعبس وذبيان ابنا قيس عيلان تتقاتلان، والدول العربية تتقاتل، والموجات البشرية العربية النازحة من الجزيرة لم تتواصل بدمائها العربية، بل تقاتلت وحلت الأقاليم محلها، الأقاليم لم تحم بعضها بل تحمل أسباب التناحر والتقاتل.

ونحن نعرف أن عربيتنا والمنادون بحماية الفرد العربي هم الذين شربوا الدم العربي، وتمتعوا بإهراقه، وحطموا إنسانية العربي أمام العالم أجمع... فهل فكرت الجامعة العربية في ماهية الأسس التي تجمع شمل العرب وتتبناها؟ تعقد الندوات، وتستقطب العلماء وتثق بهم أم إنها تحاول جمع العرب باقتصادهم، ولغتهم فحسب؟!

إن الندوات والعلماء لاشك في فاعليتهما (فهذا معالي الأمين عمرو موسى شكل مجموعات من المثقفين ولكن لم نجد أثراً) وكل هذا لن يغني عما هو ألصق بالفرد والمجتمع وهو العنصر المتمحور في داخلية الفرد والمحرك للجماعة، إنه الدين فلا ضير من الجمع وبين العرب في ظلال المنهج الرباني.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو تأملنا في التاريخ العربي نجد أن الإنسان يفدي عربيته بدمه وماله أو إقليميته بهما أي بالقومية والاقتصاد، ولا يكون ذلك إلا مع عنصر آخر إيماني يحتسب الأجر بعد مماته.

إن التاريخ يشهد أن أكثر ميدان لبذل الأنفس إنما هو الدين، وإن الأمم تتداعى إلى الحروب إذا رفعت راية الدين، وإن جامعتنا العربية لم تعمل على ربط الشعوب بالروح الإيماني لتضمن التواصل، ولا أقول أبعدت المنهج الرباني وإن وجد من يقول هذا، بل لا أتصور أن فيها وكيلا مساعدا للناحية الشرعية كما هو الشأن للناحية الثقافية.

إذن فنحن في أزمة إنسانية في الإنسان العربي نتيجة أزمة عقليته التي تشعبت بالإقليمية، وتنمذجت بالثنائية التربوية، فأسقطت المبادئ من التكوين الذهني للفرد العربي، وزرعت فيه التسلط وحب الذاتية على مستوى الفرد ومستوى الإقليم الذي يهيمن رجاله من قرية واحدة على الإقليم، فهم في صراع مع إقليمية داخلية وإقليمية خارجية.

ومن جانب آخر أخذت الثنائية تعمل على تنامي الذات "الأنا" التي وصفها علماء النفس بأنها (الأكثر نشاطا، في الميل إلى ابتغاء السيطرة على الآخرين والعنف في الكسب، والحاجة الواضحة جدا إلى التملك والطموح، والسعي المستمر إلى تحسين الوضع، وزيادة المعرفة، والاهتمام البالغ بالمسائل المادية)

العلاقات الإنسانية ص١٤.

فأولئك المتسلطون هل يمثلون المجتمعات العربية، بمعنى أننا لو وضعنا مكانه آخر لعمل عمله ولعلي لا أتصور ذلك البتة، ولكني لا أرى أنه الوحيد، إنما عملت الثنائية التربوية على نتاج شريحة اجتماعية بهذه الشاكلة فكان من فصيلتهم، وفصلتهم عن معرفة علاقة الأنا بالأسرة والمجتمع والوطن والأمة، وحب الأنا عندهم يدفعهم إلى الميل إلى المقاومة والتأثر بالأحداث، وفقدان ضبط النفس، وعدم التبصر في الأحداث التي تقف في وجهه، فهو مندفع متهالك، ومثل هؤلاء هم الذي تأخذ بأيديهم القوى المضادة للشعوب والأمة؛ كي يحرقون شعوبهم أولاً، ويحرقون أنفسهم، وفي هذا انعدام للإنسانية العربية؛ الأمر الذي يدعونا إلى تربية تبني مجتمعاً متماثلاً في تكوين المنهجية والتركيبة الذهنية والنظرة الإيمانية.

وتربية الفرد العربي ليست متوازنة متوازنة، ولم تعمد إلى غرس الأولويات التي تؤطر تنظيمه ومنهجية العقلية المستقبلة للرياح الإعلامية أو لنقل الأحداث، فالكثير من مجتمعاتنا العربية تميل حيث اتجاه الرياح الإعلامية، فهي كالأغصان، غير أن الأغصان لها جذوعها وجذورها الراسخة، فتعود بها إلى حيث كانت، أما التيارات الإعلامية فتجرف الفرد والمجتمع كما يقول أمرؤ القيس:

فأضحى يسحُّ الماء حول كُتَيْفةٍ يكبّ على الأذقان دوح الكنهل

والكنهل: الشجر الضخم.

إذا ما وظيفة التربية التي تتبناها الجامعة العربية لتوحد المجتمع العربي إن أرادت له خيرا؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والذي أراه أن تعمل على التوازن والاعتدال في الفرد والمجتمع، فينظر الفرد إلى ذاته حبا في تطورها لكن بوسائل العملية المشروعة التي كلف به الرب سبحانه وتعالى، فهو يعلي من شأنه عن طريق عمله الإنتاجي، وصلاحه السلوكي، وتفاعله الاجتماعي، فيأخذ ويعطى، ويُخدَم ويَخدِم، ويدرك أن هذا شأن الفرد، وتتلاشى نظرية أن يشترك مع جاره العربي الذي عمل وأنتج، وأصلح سلوكه، وتفاعل مع مجتمعه في توازن، وتآزر مع أمته، ونظرية أن له حقا في مال أخيه تدعوه إلى التواكل وتؤطر نفسه بالحقد والحسد، وتلهبه بالغيرة، وتعطل طاقته العقلية الإنتاجية، وتفقده النظرة الإنسانية دون أن يكون له تطلع ذاتي يحقق وجوده.

وتعمل التربية أيضا على تكوين ذهنية منهجية أي عقلية عربية متكاملة المنهج، وتختار أفضل النماذج للعقلية التي تريد صنعها، فتبني عقلية تقود سفينة العواطف والغرائز، لا تسير في مراكبها، وتكون عقلية موضوعية تتجرَّد من الانفعال حين جثوم القضية أو الحدث، وتكون غير خاضعة للقطرية أو الإقليمية، وإنما خاضعة للحق والخير، فإذا تمثل الفرد القيم العليا فهي تعمل على توازن العقل العربي والتقائه في أهداف يرضي بها المجتمع العربي والعقل الواعي.

إننا نريد عقلية لا تعصف بها الراجمات الفكرية، وأن تكون لها منهجية تتقبل بها القضايا الفردية الصغرى والكبرى، فهي قادرة على تحديد المشكلة عن طريق تكوينها العلمي المنهجي السالف، وعن طريق معرفة ماهية الحدث. والوعي بأسبابه، وماهية نتائجه، فهي قادرة على استقطاب الآراء العقلية الأخرى حوله، ثم تعي الآراء النيرة التي تستضيء بها، بل عندها القدرة على الاختيار الأفضل، ثم يسلم نتائجها إلى ميزان المنهج الرباني فإذا تعارضا فإن العقل أنقص وأضعف.

وتعمل التربية المنبثقة عن الجامعة العربية في الإطار العام الذي لامناص منه . مع أنها لم تعمل به ولا له .، وهو المنهج الرباني الذي يمثل المحور الإصلاحي في كل فرد وعمل، وهو الذي يجمع الشتات، وهو القوة المؤثرة للإنتاج والدفاع، والتواصل، وهو الذي نهض بالأمة العربية. والديانة اليهودية رغم نسخها لم تضعف الدولة اليهودية التي تسمي برلمانها بالكنيست.

ومن الخير أن تكون المنهجية الشاملة للشعوب العربية تقوم على استخلاص العلماء لها من الكتاب والسنة، تزرع الإيمان وتبني الفرد الواعي العامل، وتتواصل الأمة من خلالها، وتقوي دعائم الوشائج الأخرى، وتحفظ توازنها، ثم تحرص على الاعتدال في التبصر من العلماء الناصحين المرشدين الذين نستأنس بآرائهم في الأحداث المدلهمة، فهم القادرون على الاستنباط، واستحضار النصوص، وهم الأعلم بالأصول التي تصدر عنها الأحكام حتى لا تفترق الأمة إلى نحل ومِلَل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هل العقلية العربية قانعة؟

القناعة بالفكر سمة عربية لمعاصرينا اليوم، فهذا أديب يؤلف كتابا ينال الإعجاب والرضا، فيشيد الأدباء والمفكرون به على أمل شحذ الفكر العبقري لكنه يقنع، ويظل منصهرا في فكر هذا الكتاب. ويقنع بالقراءات السالفة، ويدور في إطار كتابه ونهجه الأول.

ولو نظرنا إلى صدام حسين بميزان الموضوعية لوجدناه يمثل الجانب السياسي في العالم العربي لمنتهى القناعة، فهو يتمحور في إطار القناعة العقلية، فقد أغراه نجاحه في حرب الخليج، وظل سادرا في هيمنة العبقرية والعظمة الإعلامية، وقد أغراه أن (خوميني إيران) وقف مضادا للعالم كله، فكأن إعجابه بالخوميني ومنافسته إياه على الزعامة هما عاملا الحرب، وليست المبادئ والأيديولوجيات، ولم يعتبر أن ذلك الذي أدى بالضرر لسلفه سيدمره أيضاً.

الأمر الذي جعله يرتدي بردائه فينادي بالجهاد المقدس، ويصف أمريكا بالشيطان، ويرى الفلاسفة أن كثيرا من العرب عندهم قصور في النظرة الشاملة والتطور الفكري، بل لا يعترف بالتربية المستمرة، فالفرد يصهر الأحداث والأفكار الطارئة في أيديولوجية سابقة ويناقشها من خلالها، ولا ينظر نظرة مستقبلية ولا موضوعية أو استبيانية، الأمر الذي يحجب عنه إيجاد الحلول عن طريق الاستقراء للأحداث الراهنة، فيضل طريقه، والعرب أحوج ما يحتاجون في زمنهم الراهن إلى عقلية تضع الاحتمالات أولاً، ثم تختار وفق الزمان والمكان والتوجهات الحالية والمستقبلية، مع المحافظة على الأمور التوقيفية.

ونحن بإزاء ذلك بين شخصيتين أثَّرتا في التاريخ المعاصر تأثيرا كبيرا أولاهما: هتلر الطاغية الذي ركن إلي عقله، وإلى تركيبته الذهنية السالفة، فلم تساعده القوة الكبيرة مع النجاح، بل كانت وسيلة دماره وانتحاره، وشتات بلاده وفرقتها.

وثانيهما عقلية تشرشل المنهجية التي قادت بلاده إلى النصر والقوة معاً، لأنه يضع عشرة احتمالات لكل قضية، وكانت موارد الفكر إليه لا تصدها سدود، ولا تحجبها حواجب، فهي الأنوار التي تكشف له طريق الاختيار، ولم يزعزع شخصيته السياسية أمام شعبه خضوعه للتوجهات الأمريكية، فكان النصر حليفه، فبقيت بريطانيا العظمى، وغابت ألمانيا وتقسَّمت.ومن المفارقات أنها تتوحد توحداً سليماً، وتبدأ الدول العربية في الانشقاق والتفرق، فقد اهتدى زعماؤها إلى السبل السليمة، ودفعوا إلى المحتلين تعويضات كبرى نتيجة الغلطة الهتلرية من أجل الوحدة، فالمال وحده أفضل من خسارة الأرض والحضارة والفتك والدمار.

ويختلف الساسة في كيفية النهل من موازين الحكمة، وتواصل التروي من جداول المعرفة النابعة من عالم اليوم المتمثل في قرية واحدة، أو قل أوعية شريانية تلتقي بالعقل النير للإنسان الشعبي، فتثري فكره، وتنير بصيرته، فيتدبر واقعه،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويخطط لمستقبله، فكيف بأولئك القمم أو النجوم السياسية التي تتلألأ في سماء جلّ دول العالم ولاسيَّما أقطاب الدول الكبرى الذين يمثلون النضج العقلي لهم ولشعوبهم؟، فلو فكَّر الباحث في مصادر الغذاء الفكري، أو التكوين الذهني ما استطاع حصرا، فهم لا يملكون قوالب جاهزة لاتخاذ القرار، وإنما يملكون استيعابا لتكوين القرار وفق المكان والزمان، ورصد متغيراته، واستجلاء أسبابه، واستنارة معارفه، واستشراف زمانه.

ونحن لو نظرنا إلى التغيرات التي قادها (نمور بانشوف) في أوربا الشرقية لوجدنا أن الرجل نأى عن القبضة الحديدية، ولجأ إلى العقلية الحوارية، فهو لم يطرح منهجاً متكاملاً وقوانين ثابتة يأمر بها، وإنما يطرح فكرة، ويدعو إلى دراستها عن طريق العقول المختلفة التركيبة الذهنية، ويأمر باستقطاب الآراء حولها في الصحافة والمنتديات، ثم يختار صفوتها بمساعدة العقول الاستشارية والتصويت، وهكذا كان التغيير في بضع سنين، ولم يدمّر إلاَّ من تصدى له في عنترية عصرية جديدة.

ونحن ندرك أن أيام القبضة الحديدية أسقط (خروتشوف) لما تخلّى عن كوبا ١٩٦٤ م، أما العقلية الحوارية لم تُسقط (جورباتشوف) لما تخلى عن أوربا الشرقية، وانسحب من أفغانستان.

والقارئ للحدث الخطير. غزو العراق للكويت – يرى كيف كانت الحكمة، بالتخطيط الفوري، فالمملكة بصبرها وحكمتها تريثت لعاملين اثنين، وإلاَّ فالأمر أذهل المرضعة عما أرضعت حين حملت طفلها حتى إذا أمِنت ونظرت إلى حضنها وجدته ((وسادة))، وليس بالهين اجتياح دولة صديقة، ولا احتلال دولة في مجلس التعاون الخليجي، وليس بالهيِّن النوم أمام فكي الأسد.

والذي دفع المملكة للتريث أمران أما أحدهما فإنها لا تريد أن يكون تصرفها ردة مباشرة، لأنك إذا قذفت حجراً على حائط لا تدري أين يسقط، فآثرت الاستعانة بالعقول العربية الجماعية المتعددة الجماعية والمخلصة لمباشرة الحدث، حتى تبين لذي عينين ما دبر بليل.

وثانيهما: أرادت أن تضمن تحقيق الهدف في نتيجة حسابية دقيقة بعد التوكل على الله – فالمخاطرة بالوطن لا تدانيها مخاطرة، والمخاطرة بالدين تفوق الوطنية، والمخاطرة بالحضارة تمزق الأمة، والمخاطرة بالعرض ترسف الفرد. فهذه الحكمة في مواجه الفردية فلو بادلناها تهوراً بتهور كم يكون عدد الضحايا؟ وكم كان من دمار في الأيام القليلة الماضية؟

وفي مصداقية هذا تبلورت خلاصة نجوم السياسة عربية وغيرها، فبادرت إلى خطط مقسمة إلى مراحل أولاً وضعت حداً فاصلاً للحدث وحصره، وكونت أسواراً منيعة لا يتجاوزها المتهور، ثم شرعت بالتوجهات والدراسات والآراء وبناء الهيكل العام للتصرف من منطلق القوة والحكمة والتريث فلو كانت تتصرف هذه السياسات بذاتها ما وجدنا أعجل من الرئيس الأمريكي في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حسم الموقف، فذلك يمنحه جاهاً، ووفرة مال، ومبادرة شجاعة، ولكنه يفكر بعملية رياضية لا تحتمل إلا محصلة واحدة، وإن اختلفت وسائل الحل، ففكر في الخسائر البشرية، وفى المكانة الدولية، فكر في شعبه، وفي أمواله، فاستقطب الرأي الدولي ولم ير بأسا في مجاراته، والاستظلال بظلاله، بل اجتمع مع جورباتشوف عند بداية مجده.

فهذه تنازلات من منتصر بالعقل والموضوعية نتيجة التروي من الجداول الفكرية النابعة من الحدث المباشر، وليس هدفي الإشادة بقوة مخصوصة، أو شخصية محددة إنما التعرف على منهجه ومناهج أمثاله. والاتفاقية الأخيرة بين قطبي العالم في (هلسنكي) هي الموت البطيء لصدام حسين حيث أعرضوا عن الموت على شاكلة مصارعة الثيران، واتجهوا إلى الفتك بالخصم على شاكلة الروايات، لاسيَّما قصص (بوب) التي تلجأ إلى حيل لا تعود على الفاتك بأي ضرر، فإن فلسفته إذا قبض على البطل أن يكون المتضرر الأول.

ومن هنا فإنِّي أعتقد أن العالم العربي – بعد انكشاف هذه الظلمات أحوج ما يكون إلى التربية السليمة، وبناء العقلية المنهجية، التي تحميه من الاهتزازات الإعلامية وأزيز التفجرات المنبرية.

دوائر:-

قل بربك ماذا في أحضان الأحداث؟

قل بربك بماذا لقحت الظلمات؟

أعاصير مخيفة تنسرب في النفوس!

تجتاح أهل النهي والعفوية.

واللبيب فيها دوائر نيرانية.

والجاهل فيها يحمل حزما حطبية

والشائعات تحصد العقلانية

والأبكار تتمنى إجهاضاً بعملية

والأمهات تبكي بنظرة مستقبلية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العزيمة

العزيمة قوة كامنة في كل إنسان، مستودعها ومستقرها القلب البشري، أو قل هي مزيج من الروح والنفس والقلب، ذلك النابض الدائم، فالعزيمة دائمة في القلب ما دامت الروح، والعقل ينميها ويغذيها، ويزيدها استقامة واشتعالا إذا ما سلكت سبل الخير والحق، ومن هنا فإن العزيمة توظف النفس؛ فهي تكوِّن الإرادة، وتوظف القلب ليكون دافعاً ومدافعاً ومنفعلاً، وتوظف العقل ليخطط ويتدبر ويتأمل، ثم تفيض مع الشعور الإنساني حيث أفاض، فتجعله ثائراً لهدفه وغايته، وينطلق ذلك عبر التدفق الدموي ليوظف كل الجسم تحقيقاً لرغبة العزيمة والعمل الذي فيه عمران الأرض، وبناء الكون لا يتأتى إلا بعزيمة إنسانية ذلك ما أراده الله، فهو الذي استعمرنا في الأرض، وهو الذي غرس فينا جذوة العزيمة، فالعبادة بالعمل، والغذاء بالعمل، والصحة بالعمل، والفوز بالعمل، والعلم بالعمل، والوجاهة والريادة بالعمل، ولا عمل بلا عزيمة، فالرسل الذين أرسلهم الله من أهل العزيمة، وأولئك الذين ظلت أديانهم حية، ومن هنا ندرك أن العزيمة متفاوتة في الإنسان، فهناك المتقدة عزيمته، فإذا كان من أهل الخير فاض عمله عليه وعلى المجتمع، وإن وظف عزيمته للشر أحدث أضرارا لذاته وللمحيطين به.

والعزيمة غريزة تتنامى مع الفرد من صغره، وجميع البشر ينمونها في طفولتهم للمشي والأكل، فتعجب من محاولات الطفل في مشيه وكلامه حتى يستوي على سوقه.

والعزيمة من الغرائز التي تتأثر بالتربية والقدوة، فهناك العزيمة المتوثبة المتقدمة التي تدفع بصاحبها إلى العمل الدءوب، فتراه متفوقا، وأنت تشاهد ذلك يوميا في صفوف التلاميذ، وقاعات المحاضرات ودواوين العمل، وميادين الصناعة، فتجد أن هناك شريحة تتألق إنجازاً وإبداعاً، حضوراً مكبراً، وعملاً متواصلاً، وإطلاعاً واسعاً، وهناك شريحة أخرى أقل من الأولى تحس بجذوة العزيمة لكنها لا تستثمرها كثيرا، ولم تهيمن العزيمة على كل مشاعرهم ومسارب عقولهم.

وهناك شريحة انطفأت فيها جذوة العزيمة، فلم تدع للتباري ولا للعمل ولا للإنجاز، ولانعدام العزيمة فقد ارتطموا في قاع البلادة، وتقنعوا بالبطالة المقنعة، وأصبحوا عالة في فصولهم أو قاعتهم أو دواوين أعمالهم، أو مصانعهم، فهم هابطو العزيمة مثبطو العزائم.

ونحن في هذا العالم المتواصل المتعارف ندرك أن العزيمة بَنَتْ أمماً وانتشلتهم من القاع إلى منافسة الدول المتقدمة، فهناك أمم ارتسفت في كوابل وقيود الهزيمة، لكن العزيمة العملية فكت أصفادها، ونهضت من كبوتها، وبنت إنسانيتها وكيانها وهيمنت على اقتصاد العالم، أليست اليابان المثل المتجلي في هذا المضمار؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أليست العزيمة التي أطفأتها الشيوعية، فانطفأ العمل في الاتحاد السوفيتي سابقاً وكانت سبيلا إلى تقويضه؟ أليس شغلهم الشاغل الآن إعادة العزيمة للعمل؟.

ونحن أمة عربية إسلامية، ورسول صلى الله عليه وسلم من أهل العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وكانت عزيمته تظهر قبل الإسلام في أمور كثيرة. وأرضنا ووطننا تبني العزم في إنسانها، فالذي لا يعمل ولا يكدح ويكابد فسبيله الهلاك والضياع في هذه الجزيرة، ولست أدري من أين أتت هذه البطالة المقنعة لمجتمعنا، والأدهى كيف يرسف بعض الشباب في قلق البطالة والابتعاد عن العمل بحجج ضعف الأجر أو غيرها؟

ونحن أيها الأخوة كنّا أمة عزيمة تتداعى على العمل وقوة الإرادة، ولا تتداعى على الولائم والتواكل، فحري بنا اليوم أن نعيد سيرة الأجداد في عزائمهم وعملهم واحترامهم الدأب والتطلع الدائم إلى العمل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحياة والموت

الحياة والموت هما كلمتان متضادتان حتميتان، تلتقيان في الإنسان والحيوان، " يتصادمان " فيوّلدان القدرة البشرية، أو القوة الحياتية، فهل هناك أقوى من الإنسان في فكره ونفسه وجسده، عندما يحس باقتراب الموت منه؟! فكم تبلور في الأزمات الفكر الإبداعي فأنقذ صاحبه من الخطر الدّاهم! وكم من حركة إبداعية احتيالية مراوغة انثالت عليه، ولمحة خاطفة أحسن الاختيار لما يحتّمه الموقف! وكم أُعطي الضّعيف الهزيل والمريض السقيم من قوة فولاذية في مواجهة خصم لدود! وما هذا وذاك إلاّ من قوة الصراع حيث تتواصل قوى الإنسان الروحية والنفسية والجسمية، فتتجلى القوة الهائلة.

الحياة فيها بشْر وفرح، وكم يولّد ذلك من شرور وعقوق وفتك ودمار حينما يتحاسد فيه الناس؟!

والموت فيه حزن وتَرَح، وكم تكون عواقبه من الحياة والسرور من مادة ووظيفة وجاه!! ذلك تدبير العليم الخبير.

والكافر يشعر في الموت بنهاية مصيرية بما يحمله من ظلم وقهرٍ في دنياه، والموت للمسلم مخاطرة واختبار في عذاب قائم، أو نعيم دائم يتمنّى ألا تنجبه أمه قبل الموقف الأول.

و " الحياة والموت في شعر بني أمية " كتاب للدكتور محمد بن حسن الزير، صحب فيه أرهف خلق الله حساً، وأمضاهم أثراً، ينبض قلبه ويتدبر فكره، مع الشعراء ومعاناتهم من آلام الحياة وخشية الموت، يبحث عن نفسياتهم واهتزازاتهم وروعاتهم وقليل لهواتهم، صحبهم لمدة أربع سنوات، لكن أخانا لم تضطرب جوانبه، فالحمد لله أن السواد في ذؤابته لم يمت وكأنّه لطول الصحبة ألفه كما يألف الطير أيكة.

والبحث في ذلك جاء في سفر ضخم بلغ ستاً وأربعين وستمائة صفحة من الحجم الكبير، استهلّه بمقدمة انتظمت حروف الهجاء واستنفدتها إلا قليلاً، وبادر إلى رصد المصادر والمراجع، وقسّم كتابه إلى أربعة فصول: الفصل الأول؛ المشكلة، وتناول في مضمونها العصر وإشكالية الموت، وخص الفصل الثالث لتجارب الموت في حياة الشاعر ووسائل تعبيره، ومثيراته من شيخوخة ومرض وفقر وجدب وسُحب وليل.

وحصر الفصل الرابع في إطار الحديث عن الحياة وموقفه من الموت والهروب منه ومحاولة نسيانه والإقبال على مباهج الحياة.

– والكتاب يتناول الموت في عصر استمد نظرته من تواصله مع الجاهلية عن طريق الحياة القبلية التي مازالت قريبة عهد بحياتها الأولى.

ويستمد من التوجّه الإسلامي والإيمان الذي أمطر القلوب الإنسانية، فالمسلم تنتابه الخشية من الموت عن طريق الفطرة، وتحمل المسئولية وخشية المصير، بل وفي ذلك اعتدال في الحياة وقرع له أحياناً، ولذا وظف الإسلام الموت للعبرة فدعا إلى زيارة القبور للعبرة والاستقامة في الحياة ومراقبة الذات ومراقبة العمل.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والمؤلف استحضر العوامل التي تأطر بها إنسان العصر الأموي من وراثته لحياة أسلافه، وتأثّره بالروح الإيمانية، وانصهارها في جو مثقل بالمؤثرات الحياتية التي تحتاج إلى منهج حياتي يستهدي به الفرد في مسيرة عمره الزمني والعقلي.

لقد تأطرت العقلية الإسلامية في الحياة والموت بالأطر الإسلامية، وأصبحت ذات وشائج بالإيمان، إمّا عن حق كما هو التوجيه السليم، وإمّا عن طريق توظيف الروح الإيمانية لأهداف مستترة، كظهور بعض الفرق السياسية والدينية، وقد أدرك الجميع أن القوة الإيمانية تمثل الدافع العظيم في بذل النفس واستقبال الموت، وكثير من الحروب والأهوال أضرمت بنار الأهواء والأحقاد والأهداف السياسية، غير أنَّ الكل يظهر بمظهر الجهاد المقدّس، فيوهم عامة النّاس أن الدافع الدين أولاً وآخراً، ومن هنا نجد الفداء بالنفس والمال.

وقد تحدّث محمد الوزير عن هوان الموت في نظر الصعاليك تعبيراً منهم عن شعورهم بما يتهدد كيانهم الاجتماعي، ذلك التهديد الناشئ عن عاملين: هما الفقر من ناحية بما فيه من تهديد مباشر للحياة، وبما فيه من ذلة ومهانة، واحتكار السيادة من ناحية أخرى، بما يتضمنه هذا الاحتكار من نفوذ له أثره في العامل الأول)) ص ٤٥.

وقد احتل الموت وإشكالياته مساحات كبيرة من الكتاب، فقد أطال التأمل فيه، الأمر الذي يقدح الإشراق الفكري كما قال أفلاطون: " إن الفلسفة هي تأمل الموت، وهي عبارة توحي بأن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي تثير لدى الفيلسوف شتى ضروب التأمل، فتدفعه إلى النظر في أسرار الوجود، والبحث عما يكمن وراء ظواهر الحس " ص ٦٥.

لكن التأمل هو الذي يهدف إليه أفلاطون، أو الذي تجلى في عصرنا الحاضر عند مدرسة المهجر ولاسيما خليل مطران خليل، وإيليا أبو ماضي، والذي يؤدي إلى معرفة الكامل والشفافية؛ فهل رأى هذا التأمل النور عند شعراء بني أمية أم إنهم نظروا إلى الموت نظرة سطحية واقعية فحسب؟؛ أم أن الموت فقد هيمنته على الإنسان بفعل رخص النفس عند الجاهلي في سبيل الثأر والحميّة وغيرهما؟ أم إنّ الموت فقد تأثيره لما أدرك الإنسان العربي أنه في زمن محدود ومكان محدود، لا تقربه الحرب، ولا يبعده الحذر؟!

وأزعم أنّ كل ذلك قد أطّر النظرة إلى الموت، فهذا شاعرهم يسوغ وجود حياته تسويغاً إنسانياً شاملاً شعبياً يحس به كل فرد:

لقد زاد الحياة إليّ حباً ... بناتي إنهن من الضعاف
مخافة أن يرين البؤس بعدي ... وأن يشربن رنْقاً غير صاف
وأن يعرين إن كُسي الجواري ... فتنبو العين عن كرم عجاف
وأن يضطرهن الدَهر بعدي ... إلى حلف من الأعمام جاف

ص ٦٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والخشية من موت الفجاءة حفّزتهم على ابتهال الزمن بالموافقة والاختيار والمبادرة إلى عمل الخير، وحالت دون فعل المحرّم:

لولا حذاري من الحتوف فقد أصبحت من خوفها على وجل
لكنت للقلب في الهوى تبعاً إن هواه ربائب الحجل

ص ٧١

الحجل: ج حجال

ومما يحبب إليهم الموت إثقال الهموم والمصائب، فالتدبر بالأحداث والعظة بها توحي إليهم بأنهم صائرون إلى ما صار إليه صحبهم، فيرون الراحة لمن قضى والنّصَب لمن بقي:

ألا ليت أني صادفتني منيتي ولم أر قتلى العام يا أم أسلما

ص ٣٠٦.

وقول الشاعر:

وأيقنت أني لا محالة ميت فمتبع آثار من قد خلا قبلي

ص ٣٠٧.

وبوقفة جلية، الكتاب السابق يتبين الآتي:

- يسجّل للباحث الزير قدرته على التذوّق الفني للأبيات الشعرية، يتبلور ذلك في مختاراته التي تزخر بالجمال الفني والتدفق الشعوري، الأمر الذي يأسر القارئ ويدعوه للتواصل مع البحث وإن لم يهدف إلى شاهد أو معنى مخصوص.
- تظهر قدراته في عمله وتأمله الطويل، وجمعه أطراف البحث من دواوين شتّى في عصر من أغزر العصور الأدبية الفياضة بالعطاء والتنوع.
- يتلألأ البحث بالألفاظ المنتقاة الرقيقة التي أعطت البنية التركيبية روح المعاصرة، وأخذت تشع به العروض الشيّقة التي تمهد للأبيات وعرض الجزئيات في إيجاز موح يشرق بالمعاني، وينأى عن الإسهاب الذي يذهب بجهد الكاتب.
- الكتاب قد استنزف زمناً وفكراً من الكاتب، ومع ذلك أطال في التمهيد، وعرج إليها في الخاتمة، وحاول سردها في مسرد تفصيلي أيضاً وكان في غنى عن الأخير، والأجدى أن يُجْمِله في فهرست موجز.
- المؤلف رافق الكتب في أمد متواصل حتى أَلِفَها، الأمر الذي جعلها تترى في الهوامش بفيض زاخر حتى انفردت صفحات كاملة مثل الصفحة الحادية عشرة، ودون الكثير منها في مسرد المصادر والمراجع.
- الكتاب يندرج ضمن التشكيل الجديد لفنون الطباعة الذي يتزيّن باللوحات ذات الدلالة، فرغم وضوح الكاتب والكتاب إلاّ أنّه قد رسم غلافه بصورة تميل إلى الغموض، وربّما إن الفنان جعلها مفتوحة للقارئ يفسرها كيف يشاء،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أو إنّها من واقع تجربة الفنانة الراسمة حيال الموت والحياة، وليست نابعة عن المؤلف أو الكتاب، ورغم أن المؤلف قدم الحياة على الموت في عنوان الكتاب تمشياً مع الواقعية القريبة من الحياة إلا أنه تحدّث عن الموت أولاً.

- والكتاب درج ضمن التشكيل الجديد برسم اللوحات، فرغم وضوح الكاتب والكتاب إلاّ أنه قد أودع غلافه صورة تميل إلى الغموض، وربما أن الفنان جعلها مفتوحة للقارئ يفسره كيف يشاء، وأغلب الظن أنّها من واقع تجربة الفنان الراسمة جبال الموت والحياة، لا من المؤلف أو الكتاب.
- رغم أنّ المؤلف قدم الحياة على الموت في عنوان كتابه تمشياً مع الواقعية وسنة الحياة إلا أنه تحدث أولاً عن الموت وهاجسه في تجارب الشعراء.
- ربط الحياة بالمرأة، وعلل ذلك بالخصوبة والأمومة، فهي مصدر البقاء وربما يسهل الموت في كنفها كقول قيس بن ذريح:

ولو شهدتني حين تحضر ميتتي جلا سكرات الموت عني كلامها

ص ٤٨٥.

وقول طهمان الكلابي:

ولو أنّ ليلى الحارثية سلمت عليّ مسجى في الثياب أسوق
حنوط وأكفاني لدي معدة وللنفس من قرب الوفاة شهيق
إذاً لحسبت الموت يتركني لها ويفرِج عني غمه فأفيق

ص ٤٨٦.

والمرأة شفاء:

بنفسِي من لو مر برد بنانه على كبدي كانت شفاء أنامله

ص ٤٨٨.

إن بناء حياة المسلم بين الحياة والموت الذي يدلف إلى الآخرة أمر له توازن في الحياة، بل هو ميزان للاعتدال، ودافع للعمل وابتهال الزمن.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البطالة في العالم الإسلامي

يتعرض كل مجتمع للصحة والمرض، شأنه شأن جزئه المكون له، ذلك الجزء هو الفرد، والفرد تعتريه أمراض متعددة، منها ما يقاومه الجسم فيتم الشفاء منه، ومنها ما تستعصي على المقاومة وتتطور سريعاً لتولد أمراضاً أخرى، وهكذا تتكاثر الأمراض في الجسم حتى لا يكون صالحاً للروح، ومن الأمراض ما يختلس الجسم اختلاساً حتى لا تكاد ترى معالمه الأولى حتى يبلغ مرحلة الخطر، ومن الأمراض ما يزول بالعلاج لكن يتهاون المريض، أو لا يكون المريض قادراً عليه.

ومجتمعنا الإسلامي تعرّض لمثل هذه الأمراض كثيراً، ولولا اعتصامه بالدين الذي يمثل المناعة في جسم الفرد، وبعض المعالجات الطبية من المصلحين بالدين والعلم والإدارة لمات هذا المجتمع قديماً. ولا أستطيع حصر الأمراض، لكن لفت انتباهي مرض البطالة في عالمنا الإسلامي، واستشرى هذا المرض لأكثر من ألف عام وعوامله تزداد، وشّره يستشري، وقد بدأت ملامحه من بعد القرن الهجري الأول حينما دبّ الثراء في أبناء المجاهدين الأوائل من الصحابة والتابعين، فقد خلفوا بعملهم أموالاً طائلة أشغلت الأبناء، وجعلتهم بمثابة الأمراء، وابتعدوا عن العمل، وكل منهم يتطلّع إلى عمل وجيه، ومكانة رفيعة، بل أخذوا ينافسون الخلفاء والأمراء والولاة الذين أبعدوا هؤلاء المنافسين عن ميادين العمل، فورثوا لأبنائهم من بعدهم البطالة، والبعد عن التفاعل مع الحياة، ونتيجة لهذا عزل العنصر العربي عن الحياة الإدارية عبر القرون الإسلامية، ما عدا أولئك الأمراء من القبائل العربية الذين لم يخضعوا لما قلنا سابقاً، وإنما تأثروا بظروف الحياة القاسية، فكونوا لهم الإمارات العربية مثل العيونيين والأسديين والعقيليين، وبعض الإمارات في الشام مثل الحمدانيين، وأسرة آل منقذ وآل عمار. لكن العنصر التركي قضى على هذه، ومثل هذا يندرج على سائر الشعوب الإسلامية.

ونحن نرى اليوم ملمحاً منه في مجتمعنا المعاصر، فنجد أن الشاب لا يقنع إلا بعمل وجيه، فإنّه لا يعمل بما يكفي مؤنته، وإنما يريد الثراء عاجلاً، فيموت منتظراً، أو ينحرف مريضاً.

ومن عوامل البطالة الأخرى، طلب العلم للعلم، فإن شباب المجتمع الإسلامي يحرص على طلب العلم، وقد اعترف المستشرقون بذلك، فقالوا بما معناه أن عدد العلماء بعدد أعمدة المساجد، ونقول: وأعمدة المدارس أيضاً. وقد صمد العلم رغم العواصف الحربية الداخلية الأشد فتكاً، والخارجية الأشد مرارة من الصليبيين والمغول. وهذه الظاهرة الإسلامية لم توظف التوظيف الفاعل للمجتمع، فإن طلب العلم لم تكن غايته العمل، ولم يصحبه العمل من المراحل الأولى حتى نهاية العمر، ولم يطبّق العلم بالعمل، بل كرر مقولة على غير ما أرادها صاحبها، وهي لو فكّرت في بصلة ما حللت مسألة، وانعزل طلبة العلم عن واقع الحياة ومشاركة البناء والعمران، وأصبحوا عالة على غيرهم يستمطرون السلطة، والأوقاف وانشغلوا بالجدل العقيم بين المذاهب، وتطور علم الكلام سريعاً لأنه لا يقوم على عمل، أمّا تنفيذ النظريات العلمية في المدارس وما ينجم عن الترجمة فلم يبرز منه شيء، وإنما برزت الفلسفة لأنها لم تعتمد على عمل، وزاد الطين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بلة ظهور الحركة الصوفية في العالم الإسلامي التي باركها الحكام لعزل شرائح لمجتمع، فأين طلاب العلم عن الجهاد ضد الصليبيين، وضد المغول؟ إنّما يقتلون في المساجد، فلو علموا ووُظفوا لبناء الحصون لقاموا بالمهمة في أشهر معدودة. وقد ظهرت في هذه المرحلة النظرية الخاطئة، وهي أن الجهاد بالقلم يغني عن الجهاد بالسيف، وكانت الصوفية تدفع لبطالتهم الأموال من السلاطين، وتجري عليهم الصدقات، وهم لا عمل لهم، فإذا انشغل الحاكم عنهم بالحرب، ولم يملك ما يدفعه لهم أثاروا الشغب في المدن والمحاربون يحاربون.

إن طلب العلم يجب أن يكون مقروناً بالعمل، وغايته العمل، ولنا في رسول الله صلى الله عيه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم القدوة الحسنة، فهم دخلوا الإسلام وقد تجاوزوا مرحلة الشباب، ومع ذلك طلبوا العلم، ورغم غزارته فإنّه لم يشغلهم عن العمل، وكذلك العلم والعمل لم يشغلاهم عن الجهاد، ولا عن تعلّم الفروسية، فأصبح المسلم يؤدي الوظائف المتعددة، وهم طلبوا العمل للعمل فلم يتجاوز الآية حتى يعملوا بمضمونها. واستمر فصل العلم عن العمل يصحب مجتمعات العالم الإسلامي إلى اليوم، فالنظام التعليمي الجديد يحتّم على الشاب أن يواصل تعليمه من السادسة حتى الرابعة والعشرين، وهو عالة على أهله وأسرته، حتى خدمته المنزلية يراها واجبة على أسرته، بينما يجب أن يخدمهم، ولم يقترن التعليم في عالمنا الإسلامي بالعمل، ولذلك فإنّ العمالة الإسلامية اضعف من العمالة الأجنبية الكافرة من الغرب والشرق معاً، مع أن ديننا الحنيف كفانا مؤونة النظريات، وأوجب علينا العمل والإخلاص وحمل الأمانة، بل هي جزء من العبادة.

إذن فالمجتمع الإسلامي أحوج ما يكون إلى بناء فكري يقترن به العلم بالعمل. ونتيجة لانفصام العمل عن العلم ظهرت ظاهرة فقدان السلوك الإداري في العمل، فالعمل في العالم الإسلامي لم يرتبط في أكثره بسلوك مستمد من التوجيه الرباني، وقد أشار إليه علماء الفكر السياسي من علماء المسلمين في القديم كما يتضح عند ابن الأزرق في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك)، ولم يحصروه في الشريحة الحاكمة إنّما تحدثوا فيه عن السلوك في سائر جوانب العمل، إذن فهم جعلوا السلوك من ألوان علم الإدارة، واستمدّوا تنظيره من الكتاب والسنة وكانت هناك صرخات منفردة من العلماء تنادي بضرورة العمل لطلبة العلم، ومن أشهر هؤلاء أبو شامة صاحب كتاب الروضتين الذي يخاطب طالب العلم:

اتخذ حرفة تعيش بها
يا طالب العلم خلِّ العلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقف
فيمضي الزمان ذلاً وعسرا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهناك شريحة من رجال العلم مارسوا المهن، ومنهم ابن سيرين وعبد الله بن المبارك الزاهد المشهور الذي مارس التجارة، وكذلك أبو حنيفة وثلة من أهل العلم دخلوا ميادين الجهاد، ومنهم ابن تيمية، ولم يمنعهم عن طلب العلم.

لم يكن ذلك مانعاً طالب العلم

من العلم فاقْفوا ذاك الأثر

وقد تعرض الشاعر كثيراً لمواقف الذل والصغار للذين لا يعملون من طلاب العلم.

وهكذا يتبين مما سبق أن الفكر موجهٌ لكل عمل، وهو المحرك للقدرات الجسدية باعتباره يمثل الإدارة لجهود هذه الأعضاء الجسدية، وبقدر ما تكون هذه الإدارة واعية بقدر ما يكون العمل عظيماً ومؤثراً يشكل إنتاجا ملموساً في محسوب الأمة العملي والعلمي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التربية والمنهج العقلي

يذهل العقل الإنساني في زمننا أمام هطول المعرفة الدائم وأمام كثرتها، وتعدد سبلها وطرائقها، بل يُسرها ومداهمتها القسرية أحياناً، فالفرد أمام هذه التيارات المعرفية ذات العواصف الرعدية يحتاج إلى عقلية تأملية ذات منهجية قادرة على التمييز والاختيار، سريعة التنقيب والتمحيص، ولاسيّما الأمة التي لها معتقداتها ومبادئها التي ترى أنه من الواجب الحفاظ عليها ونحن في زمن العولمة التي لا فكاك منها نبتغي تربية تغرس ثوابت، وتنمي عقولاً منهجية، ذات قدرات تأملية، وهذه ليست من الصعوبة بمكان، فالتربية التي تكوّن هذه الخصائص العقلية قريبة التناول لو سلّم بها أبناء جلدتنا من المفكرين ورواد الفكر التربوي ورواد الفكر الإعلامي؛ لكن مصيبتنا تأتي من قناعة بعض المفكرين بأن معتقداتنا وتراثنا لا يولّد مثل هذا العقل.

فم هؤلاء المفكرين من يرى أن العقل الإسلامي عقل انقيادي، اتباعي لا تأملي، يستسلم لموجات الفكر العابرة، ولا يمحص كتب بعضهم: ((والتسليم بالأمر الواقع يتراوح ما بين التسليم بـ ((القدر الإلهي الغيبي))، الذي تبرّز من خلاله العطالة أمام هذا القدر، والتسليم بالواقع وقوانينه الثابتة عبر قدسية الأعراف والعادات والتقاليد والقيم، وهو ما يبرر العطالة أمام هذا الواقع)) (الفكر يوليو عام ٢٠٠٠ ص ١٠).

بهذه القناعة من الكاتب وأمثاله انحرفت الأمة عن مسارها الصحيح وأصبحت مستسلمة للغرب بدل أن تأخذ بعقلانية لها جوانبها المتعددة.

والعقل الإسلامي أو نظرة الإسلام للعقل تقوم على أسس، فأولها: أن العقل له قدرات ولكنّها محدودة تماماً كالبصر وسائر الحواس. فالعقل في هذا الكون أمام عناصر هي:

١- ما يعجز عنه العقل البشري وهي الأمور الغيبية، فالله يسّر على البشر وعرّفهم بها، فيجب الاستسلام والانقياد بفكر تأملي يسمح باستثمار هذه الغيبيات لصالح النفس والبشر.

٢- أن العقل قادر على معرفة الله: فدعا الفرد إلى معرفة الله عن طريق البرهان والحجة والتأمل، فمعرفة الله بمعرفة مخلوقاته، وهذه يسّرها الله على لسان رسله وفي محكم كتبه، ودعاهم إلى الإيمان عن طريق التأمل العقلي، فكان الأمر ميسوراً شائعاً شعبياً، بينما نجد أنّ الفلاسفة أدركوا أن وراء هذا الكون خالقاً ومدبّراً، ولكنهم تاهوا في تنظير الفكر ولم يروّضوه شعبياً، فلم تكن الفلسفة داعية لتوحيد الله بالعبادة.

٣- وهناك العقل الاختيار، والاختيار يدل على التأمل والتعقل، وهذه أبواب واسعة ومدها شاسع، فعن طريقها عبادة رب العباد (فألهمها فجورها وتقواها) وعن طريقها بناء المعرفة، وبناء المعمورة، وهذه مسلّمات العقل النّاجم عن المعرفة الإسلامية، أمّا ما طرأ على العقل من شوائب العادات والتقاليد والأفكار المضلة فهذه طارئة، يجب أن يمحص

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العقل والفكر عنها ولا تكون عقبة تصد عن أن يكون التوجيه الرباني للعقل مرجعية تربوية. ولا برهان على أن العقل المنتزع من التشريع الإسلامي الخالص من الشوائب البشرية يؤدي إلى البطالة أو العطالة، وإنما هو زعّم اتبعنا فيه مجريات الفكر الأوروبي في عصر التنوير للغرب، ومما لا شك فيه أن تعطيل العقل الشرعي أدى إلى العطالة فالشرع يدعو للعمل الدائم، فكيف لو أخذنا بالعقل الداعي إلى ذلك؟

لكن الذي لم تعمل به الأمة هو إيجاد منهجية لتربية العقل تأخذ به إلى التأمل والتدبّر. فلو علّمنا أولادنا أنّ كل قضية نحاول أن نكتشف التوجيه الرباني فيها نتأملها عقلياً، ونمحصها واقعياً، ونقارن بين تضاداتها وتعارضاتها، ومن خلال المفارقة تتجلّى الحقيقة. لكننا في تربيتنا لم نبلغ درجة المنهجية العقلية حتى في تربيتنا المنزلية لا ندعو النشء إلى توظيف العقل في صغائر الأمور حتى يتطور المنهج الفكري معه.

فهل إلى نهج تربوي يبني منهجاً عقلياً يتطوّر بالممارسة العملية في الحياة الفكرية والسلوكية والحوارية كي يروض المعرفة والكون وثقافة الأمم وكل طارئ إلى ممارسة عملية؟ إننا إن فعلنا نكون قد بدأنا ببناء ناشئة تصنع المستقبل للذي نريده للبلاد، وأسأل الله أن نفعل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الانحراف الفكري العدواني

تطرأ ظاهرة الانحراف في التكوين الإنساني عامة؛ تطرأ في تكوينه الذهني، وفي تكوينه السلوكي وفي تكوينه العقائدي، وتطرأ على تكوينه الاجتماعي. وتنتمي كلها إلى ظاهرة الاختلاف، وكل مفكر يدرك أن الاختلاف أمر حتمي، بل هو وسيلة للإبداع، ووسيلة إلى تكوين الرأي الأصلح أو المعتدل، بل يؤدي إلى الوسطية. لكن هذا الاختلاف إذا تواصل تواصلاً ذهنياً وفكرياً، وحاول التسويغ والبرهنة بالعقل والتفكير، وأن تكون الوسائل البرهانية هي سبيله إلى الغاية فإنه يفتح السبل للطرائق المدنية والحضارية، بل والإنسانية، بل هي العقل وحصيلته التأملية، تلك التي تؤدي إلى تلاقي الأفكار، وتنامي العلاقات الإنسانية، والحرية العقلية، والسلام الإنساني، والتطور الحضاري بعامة.

أمّا إذا ما تواصل الإنسان مع فكرة محدودة، وتوقف عندها، واتخذ وسيلة العنف باللسان واليد أو القوة فهنا تكون الطامة على الفرد، وإذا كانت لمجموعات فتكون مصيبتها على المجتمع.

تلك هي بؤر الانحراف السلوكي والاجتماعي، وتلك هي الضعف الفكري والإفراط الديني الذي يخالف الشرع بالخروج عن طاعة ولي الأمر. والإفساد بسفك دماء، وترويع الأمة، ووقف أعمالها الخيرية ووقف البناء الداخلي، بل تدميره.

إنّهم يعملون أعمالاً شريرة لم تخطر على بالهم، ولم يتدبروا عاقبتهم، فعقلوهم محجوبة، وأدمغتهم محسورة وسلوكياتهم منحرفة، وفكرهم مندفع مقتنع بما لا يقنع به العقلاء، وعامة الشعب من هذا الانحراف الفكري والسلوكي مصيبة العالم الإسلامي الأولى؛ لأنها تضرب من الداخل، وتسوغ البراهين للمتربص الخارجي إن أعظم مصائب الفرد التي تتأتى من ذوي القربى، وكذلك مصائب الأمة هي التي تتأتى من بني مجتمعه أو من صرعاتهم، إنّ هذه الفئة القليلة العدد جداً آذت مجتمعنا داخلياً وخارجياً، وكلفتنا أموالاً وساءت إلى مكانة الفرد السعودي والعربي والإسلامي.

علينا أن تتدبر واقع الأمر، ومستقبله، وندرك ماهيته، ونعالجها بشتى السبل بالحسنى لمن استجاب بالحسنى قبل أن يفعل الانحراف بالقوة لمن تجاوز وظلم، وأفسد في الأرض.

إننا لما نتأمل في ماهية التفكير عند هؤلاء، نجدهم يظنون أنهم قاموا بأعمال دينية، بينما هم قاموا بأعمال ضد الدين ومعارضة له، ومتعارضة مع النظرة الإنسانية، ومع الخاصية العقلية البشرية، ومتعارضة مع السلوكيات ذات القيم الدينية والإنسانية بأمور لو قارنّاها بسيرة الرسول وصحابته، والدول الإسلامية لوجدنا أنّهم مخالفون الدين نقلاً وعملاً وتطبيقاً؛ فإعلان الجهاد لا يكون إلا تحت لواء قيادة الأمة، وهم يخالفون الشرع حين يجفون على أهل الذّمة، وهم يسلكون سبل قطاع الطرق حين يعتدون على المسلمين الآمنين، وهم يعارضون مسيرة العمران حين يتركون العمل والإنجاز، وهم يخالفون الشرع حيث يتركون أسرهم أيتاماً أو جياعاً عالة على غيرهم، وهم كذلك يعقون آباءهم وأمهاتهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذين يعيشون تعلق دائم تساؤلاً عن مصيرهم، ثم يفاجئون بارتكابهم لهذا الإجرام المنحرف إلى أعلى درجات الإجرام والانحراف.

لست أدري أين العقول والبراهين التأملية؟

لست أدري أين القيم الإنسانية السلوكية؟

لست أدري كيف يكون الضعف العقلي المؤدي للتبعية؟

لست أدري أين المنهجية الفكرية؟

أنّها أفعال غاب خيرها، وحضر شرها.

إنَّها أمور شابت لها رؤوس الولدان، وتفطّرت منها قلوب الشيوخ، واهتز لها كيان العلماء، فاللهم نسألك أن تري شبابنا الحق حقاً وترزقهم أتباعه، وأن تريهم الباطل باطلاً وترزقهم اجتنابه، اللهم اهدِ شبابنا صراطك المستقيم.

اللهم اجعل هذه آخر فئة منحرفة، وأصلح سائر أمتنا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الرابع
ثقافـــة الريـــاض

الجداول الفكرية في مدينة الرياض

ربما كان الفكر من أعقد التركيبات الجسدية والنفسية في الإنسان، فلو شخصنا الفكر إنسانا، وسألنا عن موطنه، ومنابع تكوينه ومنابت أغصانه، لقال: إن موطنه العقل، وأعظم به من موطن، فالعقل من أعظم المنح الربانية للبشرية، اصطُفِيَ به الإنسان على سائر الأكوان، وبه الإيمان، وبه التدبر والتنظيم، وبه حياة الطبيعة، وهو وسيلة الاستنباط، والاختراع، فإذا تنامى العقل في الفرد فإنه يسمو، وإذا تنامت عقول المجتمع فإنه يعلو ويبني، ويرتقي بالأمة.

ولو حاورناه حول: منابع تكوينه لقال: إن الأمن ظلاله، والاستقرار عماده، ومؤسسات الفكر جداوله المائية التي يرتوي فيها.

ونحن لما نتأمل تكوين المعالم الثقافية في العاصمة الرياض، ونحن شهود عيان عليها ندرك عظمة العقلية الإدارية، والعزيمة الصادقة لولاة الأمر، وعمق الفكر لتأسيس القاعدة الفكرية في مدينة الرياض، استهلالاً بالمؤسس الباني الملك عبد العزيز الذي حمل راية فكر الدعوة الإسلامية، وبنى لها مناهج دعوية قادرة على الاستحواذ، ومن ثمَّ الانتشار، فبنى العقول في المساجد وحلقات العلماء ومجالسهم، وأرسل البعوث لطباعة الكتب للهند ومصر والإتيان بها، ولم يلبث الزمن طويلاً حتى أخذ هو وأبناؤه بتكوين المؤسسات المعرفية التي شهدنا تأسيسها وتطورها، وقطفنا ثمارها اليانعة، ولنقف وقفات خاطفة عند الجداول الفكرية.

دار الإفتاء: هي دار تحافظ على صفاء العقيدة، وتنشرها، فالفتيا التي صدرت عن علمائنا أفرادا وجماعات استهلالاً بالمفتي محمد بن إبراهيم، وتبعه الشيخ عبد الله بن حميد، والمفتي عبد العزيز بن باز، والمفتي عبد العزيز آل الشيخ وعدد كبير من العلماء، ومجلس كبار العلماء رحم الله من فات منهم وأمد بعمر من بقي، حيث كان لهذه الفتاوى تأثيرها المتأصل في الاتجاه الإسلامي المعاصر، ومن إسهامات الإفتاء نشره لأمهات الكتب الإسلامية، والمؤلفات المعاصرة، وتوزيعها على طلبة العلم بسخاء شهدناه وقبسنا منه.

وقد كان من ثمرة دار الإفتاء أن نشأت وزارة الشئون الإسلامية التي حملت أمانة الإدارة المنهجية لرعاية الشئون الإسلامية في الداخل والخارج، فهي مصدر من مصادر الفكر المعاصر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن ثمرته أيضاً إنشاء الجامعات وبناء الصروح العلمية لها؛ ومن ذلك جامعة الملك سعود التي تصدرت لريادة التعليم الجامعي الموسع من العلوم الطبية وعلوم التقنية المعاصرة، والكليات الأدبية والتربوية، وما تصدرت له من تفاعل مع المؤسسات المعرفية الخارجية؛ من المؤتمرات والندوات، وإيفاد البعوث، واستقبال الزائرين من المفكرين.

وتطورت الرئاسة العامة للكليات إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي كان لها تواصلها الفكري مع المؤسسات العلمية الإنسانية، وبادرت إلى البناء الذاتي، فكونت الدراسات العليا، ومنحت الماجستير والدكتوراه، وكان نتاج ذلك كماً هائلاً من الدراسات الشرعية المعاصرة، وإحياء كتب التفسير والحديث والفقه، وكذلك إحياء التراث العربي، والدراسات النقدية والأدبية، تلك التي نهضت بها كلية اللغة العربية، وقد عُنيت بالأدب السعودي، فكانت هناك الرسائل الجامعية عن الغزاوي، والسنوسي، وعبد القدوس الأنصاري، وسليمان بن سحمان وابن مشرف، وعن جوانب متعددة من الأدب السعودي المعاصر.

وتصدر رجال الجامعتين للحركة الفكرية المعاصرة رواداً، ومنظرين، وكتّاباً.

ووجه ولاة الأمر بإقامة معارض الكتاب السنوية في مدينة الرياض، فكانت الرياض من أهم أسواق الكتاب في العالم العربي، فتكونت المصادر الثقافية وطلاب المعرفة وقامت المكتبات العالمية الفخمة كمكتبة الملك عبد العزيز التي أسسها ورعاها صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ملك البلاد الحالي حفظه الله.

وتطورت المكتبة الوطنية إلي مكتبة الملك فهد التي أصبحت المكتبة الوطنية الكبرى للبلاد وأخذت بمبدأ الإيداع.

ومن أهم المكتبات مكتبة جامعة الملك سعود، ومكتبة جامعة الإمام ومكتبة دار الإفتاء، ومكتبة معهد الإدارة ومكتبات الوزارات، إلى جانب قيام مكتبات ودور نشر تجارية لها صداها الواسع في تأمين الكتاب ونشره، ومنها مكتبة الرشد ومكتبة العبيكان، وإن كان هناك ما هو أسبق منهما لمكتبة الحرمين، ودار اللواء وغيرهما.

وقامت الصحافة القوية في الرياض بصحيفتيها الرياض والجزيرة، ولهما انتشارهما في المجتمع، ونشيد بالدوريات الثقافية المعاصرة كمجلة العرب لحمد الجاسر، ومجلة الفيصل والمجلة العربية، ومجلة اليمامة، والتوباد، ومجلة الحرس الوطني وغيرها من الدوريات المختصة والمحكمة التابعة للجامعات والمؤسسات الثقافية، فكثير من الكتب يطبع في لبنان ومصر.

وقد أمر صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد – يرحمه الله – بافتتاح النادي الأدبي بالرياض الذي له دوره في الحركة الثقافية، فقامت فيه عدد من المحاضرات لمشاهير المفكرين والأدباء. وكذلك قيام الجمعية الثقافية، فلها دورها الثقافي في الرياض.

ودعا ولاة الأمر إلى إقامة المهرجانات الثقافية الكبرى التي تعنى بالثقافة الفكرية المعاصرة، وتستضيف أعداداً كبيرة من مثقفي العالم الإسلامي والعربي والعالمي كل سنة، فيقام مهرجان الجنادرية الثقافي الكبير الذي قلّ أن يوجد له نظير في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تنظيمه، وإعداد موضوعاته، وكثافة محاضراته وندواته، فكان أحد النوافذ المشرقة على الفكر العربي المعاصر، ومنها المؤتمرات والندوات الكبرى التي صحبت المئوية في العام الماضي، فكان لها تأثيرها في الحركة الفكرية التي أضاءت سماء الرياض، وهناك الندوات الأسبوعية الثقافية في صالونات الأدب والفكر التي تقام في قصور الأمراء وبعض رجال الفكر كأحدية الدكتور راشد المبارك، وندوة أحمد باجنيد التي هي امتداد لندوة عبد العزيز الرفاعي، وازدهرت الندوة الأثينية للشيخ عثمان الصالح، وكذلك الدكتور /محمد بن حسين، وتألقت ندوة الدكتور /أنور عشقي، وغيرهم.

ومن الجداول الثقافية التي تنمي الفكر والمؤتمرات العلمية، ومناقشة الرسائل العلمية، ومجالس العلماء وحلقاتهم في المساجد

وقد فتح ولاة الأمر المعابر للمشاركة النسائية، فأسسوا الكليات والدراسات العليا تحت إشراف الرئاسة العامة لتعليم البنات، فشارك عدد من حاملات الدكتوراه والأديبات في الحركة الفكرية، ومن ثمارها أن تصدرن للكاتبة القصصية، ومنهن من برزت في ميدان الشعر وكتابة المقال الاجتماعي.

لقد كانت مدينة تحفل بهذه الجداول التي تغذي الفكر وإنها لجديرة بأن تكون عاصمة ثقافية في عالمنا المعاصر، ولقد سبق إلى هذا القول عدد من الأدباء وروّاد الفكر العربي، فأشاروا إلى حجرة ثقافية قامت في العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلى الرياض، وتنبؤوا لهم بمستقبل ثقافي يشهد فيه المنصف، ولقد كان ذلك بعون الله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرياض والفكر

تألقت الرياض في أواخر القرن العشرين لتكون شمساً مشرقة بالثقافة، ولتحاذي العواصم العالمية العريقة بثقافة لها ذوقها الخاص؛ ثقافة تستلهم الصفاء العقدي، وتضيء بالفكر المعتدل، وتحمل هاجس الإنسانية لتمثل الاعتدال الأعم والأشمل، فهي الأمة الوسط هذه النجمة المتألقة في سماء العالم، هذه العاصمة الثقافية التي تجسدت بفعل مكونات تراكمية لها جذورها الممتدة عبر التاريخ العربي في جزيرتنا قبل الإسلام، وتلاحم الإسلام مع الدم العربي لترسخ جذوره، وتنطلق منه رايات الفتوح والدعوة، ويشاء الله أن تهب الريح على الشعلة فتنطفئ وتخبو الجذوة، حتى جاءت الحركة الإصلاحية المباركة، فَشَعَّ الضياء من الدرعية وتعانقت فيه السياسة بسيفها أو العقيدة بفكرها، فتنامت الدوحة لكن يعتريها ما يعتري الجزيرة من سنيّ الجدب والقحط، فتذبل الأوراق وتتساقط الأغصان، وتهب ريح عاتية على الدرعية فتسفو عليها الرمال، لكن الجذوة قوية ممتدة في المكان والإنسان، فسرعان ما تشتعل الجذوة في قرية الرياض، وتنساب بعض الجداول على الدوحة، لكن العواصف ما زالت تتعاور المكان، فيخبو اللهب، ويلمح الشرر تارة حتى هبت عليها عزيمة الملك عبد العزيز، فأشعل الجذوة، وأخذ يحييها في الجزيرة شرقاً وغرباً جنوباً شمالاً حتى لمع ضياؤها وانطلق تيار الرياض بأشكاله المتعددة.

فالجيوش مصدر من مصادر الثقافة، فهم يتعلمون العلم الشرعي على ظهور الإبل؛ يتدارسون القرآن الكريم، ويعلّم المتعلم الجاهل، وكان قدوتهم الملك عبد العزيز الذي يصحبه في رحلاته من يقرأ القرآن عليه أثناء السير ليلاً أو نهاراً.

وهناك من الرواة من يقرأ له القصائد الشعرية المطولة، كما يصحبه المؤرخون كأمثال العجيري، وحول هذا كان برنامجه اليومي في حالة الاستقرار بالرياض.

أما في الرياض فإن حلقات العلماء أخذت بالانتشار، واستقبل العلماء طلبة العلم في المساجد والمنازل، فكانوا الغذاء للحركة الفكرية، فهم رجالها، ورجال القضاء، ورجال التربية الفكرية، وكان لآل الشيخ الريادة في هذه النهضة المباركة إقتداء بالمصلح الأول الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فأنجبت هذه الحركة علماء لهم مكانتهم في العالم الإسلامي نذكر منهم مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الله بن حميد والشيخ عبد الحميد بن باز المفتي الثاني بعد وفاة محمد بن إبراهيم.

وقد أشاد أحمد إبراهيم الغزاوي بالخطيب الشاب الذي نال إعجاب المجتمع بخطبته المعاصرة في الحرم المكي وهو عبد العزيز آل الشيخ، وأظنه يقصد به المفتي الحالي الذي عرفناه خطيباً في مسجد نمرة حينما يشدّنا الساعات، معه وتلك نجوم عددت منها، ولا أحصيها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

*من هذه العاصمة وضواحيها بعث الملك عبد العزيز المرشدين والدعاة والقضاة الذين يعملون في المدن والقرى والبوادي ليكشفوا عن جذوة الإيمان الكامنة في نفوس أبناء الجزيرة، ولقد أدركت نموذجاً منهم يقال له فايز العبد لله الذي تصدر للإرشاد في حرة الرها والعويرض، وانتهي به المطاف في أقصى شمال الجزيرة في مدينة حقل حيث توفاه الله ساجداً في المسجد، وممن لم أدرك الكثير، وأولئك هم الجند المجهولون.

ومن هؤلاء العلامة ابن بليهد الذي كان له دوره في مكة المكرمة، وابن منيع الذي قاد التعليم النظامي في البلاد. والمرشد عبد الله القرعاوي في منطقة جازان.

لم تلبث الرياض أن نهضت عمرانياً، وكما يرى بن خلدون أنك إذا رأيت تطوراً عمرانياً فإن وراءه تطوراً فكرياً، فأُنشئت المدارس، وسرعان ما فتح المعهد العلمي، ثم كلية الشريعة لتعطي أولئك العلماء إجازات علمية تؤهلهم للقضاء والتدريس والدعوة والحسبة، بل والإدارة، وكان تجسد الرئاسة العامة للكليات أوجد حركة علمية دعمتها جامعة الملك سعود التي رسَّخَت الحركة العلمية والمعرفية في سائر البلاد، وساهمت في الحركة الفكرية في العاصمة الرياض.

ومن الرجال الأفذاذ العلامة الشيخ حمد الجاسر الذي تصدر لتأسيس أول إدارة تعليم الرياض، وكان مديراً لكليتي الشريعة واللغة، ومن إنجازاته تأسيس الطباعة والصحافة في الرياض.

وقد أدرك جيلي الحركة الفكرية النابضة في الرياض مابين عام ١٣٩٠ وما بعدها، فالأرصفة تعج بالكتب والدوريات من البلاد العربية، والمكتبات في البطحاء مصدر تموين للفكر متنافس مع الديرة في تموين الغذاء الجسمي، ويصور تنافس الطلاب على الكتب في المكتبات العامة العطش الفكري لطلاب العلم، سواء في المكتبة الوطنية أو مكتبة جامعة الملك سعود وكذلك في مكتبة فتاء الانتماء والرياسة العامة للكليات.

وقد استقبلت الرياض الأدمغة المهاجرة والزائرة، وفتحت صدرها لها، ومنهم كبار العلماء من الأزهر، والشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، والشيخ عبد الرازق عفيفي، ومناع القطان، وقد استمعتُ لمحاضرات مالك بن نبي في قاعة كلية الشريعة واللغة بالرياض.

إن هذه الأسس قدح جذوتها، وأوقد شعلتها الملوك والأمراء من آل سعود، وتواصلت العزيمة لتتنامى المؤسسات الفكرية، وتشتعل الحماسة لتبني دعائم المعرفة والحركة الثقافية التي نحصد ثمارها اليانعة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثقافة العاصمة وبناء المفكر الواعي

إن ثقافة الرياض المعاصرة تراكمية لتوجيه رباني، ونهل من موروث عربي، واقتباس من حضارة إسلامية، وتعانق ثقافي مع حضارة غربية، وتلاحم مع واقع معاصر، وتوالد فكري من هذه الأمشاج، ومن هنا يجب أن يكون لهذا التطور الثقافي دوره في بناء الفكر المعاصر والفكر المستقبلي، ونحن ندرك أن مكونات الفكر متناثرة في هذه العاصمة، تماماً كحضور الطبيعة في نظر الفيلسوف، لكن الإشكالية أين الفكر؟ وكيف نبني العقول المفكرة ذات المنهجية القادرة على أن تبنى فكراً سليماً من مواد البناء المتواجدة؟ ففكر اليوم في عالمنا العربي شبيه في اختلافه بالعمران المختلف الأشكال والأذواق في المدن، فليس هناك مخططات مقنعة، إنما يرسم المهندس ما يريده العميل، أو يقبس له من هذا ومن هذا، ويتم التشكيل في ساعات معدودات. وهذا المثل الحسي يماثله الحالات الأخرى الحسية والمعنوية، الاجتماعية، والاقتصادية، وربما السياسية، والفكرية والأشد فتكاً الإعلامية، والتربوية. فهي تؤخذ من نظريات جاهزة، أو تركب من مكونات منتزعة من هنا ومن هناك تؤخذ جاهزة لبيئة جديدة، فتحمل الغربة في تكوينها، وتحمل أعباء قديمة يجب التحلل منها، أو تحمل هواجس بيئة مغايرة، بل تحمل الفردية وانطباعها، وتكوين مفاهيمه الذهنية. وأمنياتنا أن نوجد مهارة فكرية لكل فرد نبنيها في عقلية أطفالنا، وتتنامى في الأفراد، وتتلاقى في بناء الفكر الأسري والاجتماعي، وفي شرائح المجتمع العلمية كالأطباء، والمهندسين، والزراعيين، بل والإداريين، والتربويين، والمهنيين، وسائر أفراد الأمة.

ولعلها القضية المهمة التي نبتغي أن يتولد عنها الفكر المتطور في العاصمة، فتكون هناك فلسفة جديدة لبناء الفكر أولاً، أو لكيفية بناء الفكر، وهذه مهارة لا تولد مع الطفل كبقية المواهب، إنّما يقتبسها من طرائق التربية المنزلية والمدرسية والإعلامية.

والتفكير عملية تكاد أن تكون غريزية في الإنسان، فهو دائم التفكير في حالته اليومية، وفي غرائزه، وأحلامه، وأوهامه، وأمانيه، تمرّ عليه كالسراب أو كموجات البحر بلا فائدة، فتأخذ على الإنسان مساحات زمنية من عمره اليومي، وربما لا ينفذ منه شيئاً أو لا يدرك، فإذا احتاج إلى تطبيق عملي فإن يستورده من غيره. وليس لدينا المقدرة التأملية لبناء فكري منهجي لأولادنا، فليتأهب مفكرونا لبناء المنهجية الفكرية في مرحلتنا الجديدة التي تستطيع أن تقف مع التوجيه الرباني، وتقبس من الفكر السليم قديماً وحديثاً، مستورداً أو محلياً، ممزوجاً بالواقعية، مستطاعاً لآلية التنفيذ.

وعالم العولمة المعاصر، وآليات البث المباشر، ووسائل المعرفة الإجبارية وموجات الأيديولوجيات، والحيرة في تقديم الفكر الطارئ، كل ذلك يدعونا إلى بناء منهجية فكرية فردية أولاً، ثمَّ مجتمعية ثانياً، لكي نميز بين الأشياء، وندرك ماهيتها، وكيف نتعامل معها، ونواجهها بعقلية قادرة على الاستيعاب وقبول الصالح، ونفي الذي يستحق النفي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد تنبَّه كثير من المفكرين، لبناء الفكر، أو لبناء العقل، أو لبناء الوعي، وكذلك للمنهجية، وألف فيها عدد من الكتب مثل الإبداع، والتفكير الإبداعي، ومثل الفكر العملي، ولكننا من منطلق مبادئ عاصمتنا الثقافية الرياض، تتضح لنا مصادر أخرى لبناء المنهجية، فمنها ما ورد من نصوص قرآنية، وأحاديث نبوية، وكذلك ما تحدّث عنه المفسرون وأهل الحديث عرضاً، وما أشار إليه المفكرون مثل الغزالي، وابن قيم الجوزية وغيرهم الكثير.

وسائر مصادر التربية الإسلامية، وهي متفرقات، وليست متجسدة تحت مباحث خاصة، ونرصد آراء المعاصرين من علمائنا وعلماء المسلمين.

وحصيلة التجارب في الأمثال والقص، ونقارنها بالنظريات المعاصرة ويكون ذلك هاجس المنظرين التربويين، والأبحاث الجامعية، والرسائل العلمية، والدوريات المحكمة، ولو وجدنا من الأثرياء من يمول المشروع لرأينا نتاجه في سنين قليلة.

ولكن لا ينبغي علينا تأجيل الأخذ به حتى يكتمل المشروع، وإنّما نأخذ بما ندرك اليوم، فيكون هاجس الأب في أسرته وعمله ليكون قدوة، وكذلك هاجس العلم في مدرسته، والأستاذ في جامعته ومحاورته مع طلابه، ويكون هاجس الفنان في مسرحياته، وهاجس وسائل الإعلام في برامجها. إن قضايا اليوم الفكرية لا تقوم على فردية فيلسوف أو مفكر، إنّما تقوم على عمل جماعي؛ فالأمة في عالم هائج متسارع الموجات تهب عليه العواصف، وتجرفه التيارات إذا لم يقف على قاعدة صلبة ليدرك كيفية التعامل مع القضايا، ومن ثمَّ اتخاذ القرار.

ونحن نرى لمحات ومبادئ عند وزارة التربية والتعليم، ولعلّها تتبنى عقد ندوات تستثمر أفكار المربين من منظرين، وأصحاب خبرة وتجارب، وسوف نجد مصادر كبيرة في رئاسة تعليم البنات أيضاً في فكر المفكرات والتربويات، وكذلك في قاعات البحث في الكليات، ولعلّها تكون ميداناً للرسائل الجامعية في كليات التربية، بل حتى في الأقسام الشرعية عن طريق الاستنباط، ورصد الآراء المتناثرة، واستقطاب آراء المفكرين والعلماء.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العولمة والحيرة

تمتد ظلال العولمة على المعمورة لتوقع المفكرين في حيرة من جوانب إيجابياتها وسلبياتها، وما تطويه من غيبيات مستقبلية، بل بما ندركه من مكوناتها الفكرية الاقتصادية، والفكرية الإنسانية، وما تتسارع به من متغيرات مذهلة، فهل تتعانق الأمم لتكون نماذجاً كأسراب الطيور التي تنحو إلى مهجر واحد؟ أم إننا كالطيور المهاجرة إلى مواطن الهلاك عبر رحلة لا إرادية. إننا في فضاء هذه الحيرة ينبغي أن نتأمل أنفسنا في عوامل الإضاءة عبر هذه الدروب المعتمة.

ونحن في جزيرتنا لنا ضياء وهاج من التوجيه الرباني، ولاسيما الأمور التوقيفية، فلو أخذنا بها بوعي وتأمل واستنباط لما يحدث من الحوادث لكان في ذلك هدي إلى الصراط المستقيم يستوي في ذلك مسيرة الأمة والمجتمع والفرد، ولكن ينقصنا الاستنباط الواعي واكتشاف هذا الاستنباط في الزمان المناسب، ونحن نشترك مع البشرية في العقل والتأمل، فهل نخضع الموجة العارمة الاقتصادية للعقلانية، ونتبصر في مجالاتها ومؤثراتها ونتائجها، ونصافح ما فيها من خير للإنسان والوطن على كافة المسارات التي تواكب الهجمة الاقتصادية العالمية من التعامل مع الشركات المتعددة الجنسية، ومن الإعلام العاصف بالعقول البشرية الموظف توظيفاً مادياً بحتاً وعلينا أن نتأمل، أو نبحث أين إنسانية الإنسان في هذه العولمة من جوانب حريته في تدينه وحريته في بناء اقتصاده، وحريته في انتقاء أوجه حياته، وما يلحق بالفرد يلحق بالجماعة.

فهل العولمة تمنح الإنسان والشعوب الحرية الدينية والعقلانية الحقة أم أنها تمسخ الإنسان، وتجعله يسير وراء القطيع بلا إرادة؟ وهل الشعوب تحتفظ بقوة دولها، ومن ثم تماسك أوطانها؟ أم أنها خاصية لشعوب دون الأخرى، أم أن الشعوب كلها تسخر لهيمنة رجال الاقتصاد ويعبث بهم المال كيف يشاء، فهم عبيد الدرهم والمال، أم تعود مرحلة الإقطاع القديمة التي لا تحترم إنسانية الإنسان فيكون العمال كقطعان الماشية لا تنظيم يُعنى بهم حيث تبدأ عناية الدول العالمية الاجتماعية بالإنسان بالتلاشي والانحسار، لأن المال ينتقل بتصريف من شريحة محجوبة عن المجتمعات.

إنه يجب على المجتمعات أن تكون لها دعائمها التي تتكئ عليها في مواجهة تسطيح العقل، والتعدي على إنسانية الإنسان، والإنسان قادر على التعامل معها إذا احتفظ بمقوماته الفكرية، وشحذ عقله مستنبطاً وملائماً ومنسقاً وعاملاً وموظف الإيجابيات، وجاعلاً الحواجز للسلبيات.

وقبل هذا يجب علينا نحن البشرية أن ننمي عقولنا التنمية القادرة على فرز الإضاءات الخيرية من النزغات الشيطانية، وما أصعب ذلك وأشده لكثرة المتشابهات واختلاف التأويلات، وقوة الوقع، وتضليل الإعلام كما قال بعض المنظرين؛ "إذن أنشودة الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية أنشودة ملغومة "، فالعولمة تتضاءل فيها الحرية، أليس فيها هيمنة اقتصادية إجبارية؛ أليس فيها هيمنة لمبادئ سلوكية لا ترضى بها الديانات والشعوب، والعقلانية والإنسانية؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن الحريات المبتغاة في نظر العولمة هي ما تمتُّ إلى مصالح النخبة من الاقتصاديين، والمنظرين الذين أسسوها وواكبوها، وهم في ضلال الفكر يعمهون، وفي سبل المال والاقتصاد يبدعون، حتى علماء دينهم وعقلاؤهم. يعلنون الرفض، فالكنيسة تعلن تذمرها من سلوكيات العولمة بل تعارض أخلاقها

إن المفكرين يصدرون فكرهم الفلسفي، وأبحاثهم، ويستشرفون المستقبل المدلهم، ويحذرون منه، ويكشفون عن السوءات التي أخذت تتعرى للعيان.

إنني في نظرتي المحدودة أرى أن وظيفة التوجيه الرباني ربما تعلو مكانتها، وتنفجر إضاءتها، لتشع المعابر أمام البشرية لو حمل الاقتصاديون إعلامها بقوة الإعلام المضاد، فبالمقارنة والمفارقة تتكشف الحقائق.

والعقل العربي مسئول عن تكوينه الذهني الذي يؤهل إلى التصفية والتنقية، ولا يكون ذلك إلا بالاعتماد على التوجيه الرباني أولاً، ثم بتنمية المنهجية والمعرفة والوعي، والقدرة على التمحيص والفحص، واختيار الحل الأسلم مع تشابه الحلول، وما أكثر المشتبهات!

ومهمة تربية العقل وتنميته ومنهجيته مهمة وطنية شاملة، فهي من وظائف الأسرة أولاً ثم المدرسة، ثم تصعد إلى المجتمع، فالدولة بمؤسساتها التربوية والإعلامية والعملية، وهذا التعميم يدركه القاصي والداني، لكن الذي يستوجب علينا تمحيصه هو المنهج لكل شريحة من هذه الشرائح، فنطرح الفكر الأسري والفكر التربوي المدرسي والفكر الاجتماعي التربوي، وكذلك الإعلامي والتوجه الوطني لتتلاحم المنظومة التربوية، وتحمي الأمة من أن تتسم بصفة الاستهلاك الدائم اقتصادياً وسلوكياً، وتُمسخ عقلياً، وتذوب وطنياً.

وباستصلاح الإنسان تكون لديه "الممانعة الواعية"، يرفض التبعية، ويستقبل النافع ويروضه، ويواكب العمل الإبداعي سائر الأنشطة البشرية الفاعلة من الأعمال اليدوية والمهنية والعمالة الماهرة، إلى إيجاد ميادين البحث العلمي بسخاء مع مراعاة إنسانية الإنسان، وكشف جوانبها العملية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سدّ الوحدة العربية

كثير من الشعراء يريد المديح، فتقفز منه ألفاظ يشتم منها ذم، أو تؤول كما هو شأن مستهل قصيدة جرير أمام عبد الملك بن مروان ((أتصحو أم فؤادك غير صاح)).

وأبو نواس أراد تهنئة جعفر البرمكي بقصر مشيد فمدحه في مستهل القصيدة حتى تشاءم وظهر عليه الامتعاض، فلم يلبث طويلاً بعدها.

أما التسمية الجماعية من لجان فتحدث أيضاً، فقد اتفق على إنشاء سد بين سوريا والأردن، وسمته اللجان (سد الوحدة) أملاً في الوحدة العربية غير أن التعارض بين التسمية والهدف ظاهر للعيان.

والأحداث تفعل فعل الألفاظ، فالذين يتشدقون بالوحدة العربية، قوضوها بالفوارق وبالقوارع والحروب التي أحدثوها، فأصبحت أفعالهم: ((سد الوحدة العربية)) فلو تجاوزت هذه الواحد فوق الصفر لقوضتها النوازل والكوارث التي فجروها، حيث كانت السد المنيع لتنامي النسبة، بل كانت قاصمة الظهر، فقد وأدها صدام حسين وهي لم تبلغ بضع شهور من بعد مؤتمر القمة المؤازر له، كما وأد العرب بناتهم خوفاً من العار، لا خوفاً من الإملاق.

وقد دعاني التأمل في الوحدة العربية، إلى استرجاع التاريخ العربي والمناداة بلم شملها كأمة من الأمم امتد عمرها المديد، والنظرة إليها مقترنة بالأيديولوجيات التي تحكم التوافق بينها، ما عدا الفترة الذهبية في حياة الأمة العربية التي استلهمت فيها التشريع الإسلامي، واسترفدت التمازج الحضاري من الشعوب، وكانت مرحلة بناء الحضارة الإسلامية، وأني أتناول الوحدة العربية من خلال ثلاثة محاور، فالمحور الأول مرحلة التكوين العربي أيديولوجيا وإدارياً واجتماعياً، فقد كان يقوم على النظام القبلي، وشيخ القبيلة يُرشّح بشروط متعارف عليها منها الحكمة والمروءة والكرم والشجاعة والتأني والقدرة على الاستيعاب، وليس له الكلمة المطلقة، إنّما يدعو للتشاور وإبرام الأمر والدعوة في منتديات ليلية. وليس فيها انتفار (تخصيص) ولا انتقاء، فهل العالم العربي يعود برئاسته لمنهج القبيلة؟ أو لنقل هل حال الفرد في القبيلة أحسن أم أنه في عصر الحضارة والتراكم العلمي أفضل؟!

الواقع إن الفرد العربي في قبيلته أكثر حرية، وليس معنى هذا الدعوة إلى النظام القبلي قطع الله دابرها، ولكنه للمقارنة وتحليل الوحدة العربية عبر العصور ومدى تأثير التجارب الإنسانية واستجلاء العلم والمعرفة في الوعي العربي، وتلاحم العقل العربي مع الواقع. و" جمرات العرب " من القبائل القليلة جداً، وهي التي لم تنتظم في أحلاف نظراً لقوتها، أما الكثير من القبائل فيلجأ إلى التعاون في منظومة الأحلاف، فأين موقع الأحلاف من واقعنا المعاصر؟ إنّها تتمثّل في التجمعات السياسية الهشة التي لا تتواصل وشائجها إلاّ عند الرغبة في مال، أو الرهبة من عدو، أو الإغراء بمؤامرة مدبرة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما مرحلة الإعداد فإنّها تعج بالخلافات والجدل فلا بناء، ولا إعداد مثلها مثل نموذجها الأول من الأحلاف القبلية.

فما أشبه الليلة بالبارحة، بل إنّ الأحلاف القبلية أطول عمراً يلتزم بها الأفراد الجماعات، أمّا أحلاف اليوم فهي التزام سياسي فحسب.

والقبائل العربية كانت تغير لأسباب مادية كالجدب وفقر القبيلة، فحين سماعهم نزول الغيث في ديار أخرى، يبادرون إلى مهاجمة الأرض الربيعية، وربما كان ذلك لنقصان الماء في آبار، فيتنافسون مع إخوانهم على ضئيل الماء المتبقي، وما نظرية الفقراء العرب الحديثة إلا امتداد لهذه النظرية القبلية، فالآبار البترولية بمثابة الآبار المائية القديمة. ومسوغات الحرب "وحدة عربية"

ومادام تعرفنا المحور الأول، محور العودة إلى الجذور، فإن المحور الثاني يدور حول الوحدة العربية المعاصرة.

فهل تكون الأمة العربية بالمنادين بالقومية العربية متماثلة مع الأمم الأخرى المتطورة مع معارضتي الشخصية لهذا الاتجاه إذا لم يستظل بالظلال الإسلامية؟ وهل يواكبونهم في المتغيرات، والمناهج العقلية، والقدرة على المنهجية، والوعي المعرفي، والمقدرة التطبيقية؟ ونقول: إنّ الأمم المعاصرة والمنافسة والملاصقة للأمة العربية تقوم على دعائم رئيسة؛ حرية المعتقد، حرية الفرد بالتصويت على الجهاز التنفيذي والتشريعي. وحرية الاتجاه الإسلامي في أكثر الدول لا تطلب أكثر من ذلك مع أن الأولية له بمنطقهم لكن الذي يفجّر الاتجاه الإسلامي إثارة الكبت في موطنه. وغربته في مهده، والتغيير له مع الإفاضة للأيديولوجيات الأخرى بالجاه والمال.

ولو نظرنا إلى موقع الوحدة العربية فإن الشعب له رأي واحد رهبة لا رغبة، وكل أيديولوجية مباحة ما عدا الاتجاه الإسلامي، والجزئيات من المذاهب المؤدية إلى حرية الفرد، وصاحب الحرية المطلقة هو سيادة الريس، وبطانته وأعوانه لهم الحرية المالية فقط، وربما الحرية السياسة في الشعب فقط.

وسيادة الريس هو الذي يقود إلى حرب مدمرة! وإلى هزيمة منكرة، أو خسارة فادحة، والمستشارون هم يهزّون رؤوسهم كالأغصان كالحكاية الشعبية لمن أراد الخدمة عند وجهاء المال، فكان ديدنه الطرد لمعارضته المستمرة، فاتجه ‘إلى خادم ثري مقدم عند وجهاء المادة يستشيره، فقال له لو قال لك الوجيه إن الشمس تطلع من الغرب قل له " سم طال عمرك ".

ويلحق بهذا المثل الشعبي قول " من خدم قُدم " فالخدمة هي المؤهل، لا الوعي والإبداع والمعرفة والتجربة، وكم من خادم ترقي في مناصب، وحاز مكانة وصاحب الخبرة والمعرفة قابع في زواياه، وإني لأعرف أخوين أحدهما وكبيرهما صاحب معرفة ونزاهة، والآخر صاحب خدمة فحسب وبينهما من السلم الوظيفي ما يحير العقول وبالمقارنة بين عربية التراث

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعربية المعاصرة واجتناب العربية الإسلامية، وفي ذلك يتبلور قصور المعاصرة أو قل تقدّمها في أفانين الكبت، وهل يغني الاتحاد والتعانق بين الشخصيتين عن تعانق شعوبهما؟ أم هل تفترق بمزاج أحدهما أو موته فتضيع الأموال وتوقف المشاريع والخطط وتتجلّى الأكاذيب الإعلامية المضللة، بعد أن ضيعت العقول، وغررت بها لتركب موجة أخرى؟

أما المحور الثالث فهو الوحدة العربية في ظلال الشريعة الإسلامية تتبلور في معالم الوحدة الفردية والاجتماعية والسلطة ومجالس الشورى، ومنهجية الاستيعاب وقدرة الوعي كما ألهمت الخلفاء الراشدين، كموقف أبي بكر من جيش أسامة وحروب الرّدة، ومانعي الزّكاة، والتنظيم الإداري الابتكاري، الذي اضطلع به عمر بن الخطاب، فلو عثرت شاة في العراق لسئِل عنها، وعمر ابن عبد العزيز الذي استرد أموال الأمة، ووزّع الثروات وفق المنهج الإسلامي، وحاور المناوئين له، وأقنعهم بعدله لا بعزله، وعزلهم وسجنهم وقام بتعذيبهم. والعرب في تلاحمهم مع الإسلام يبنون أفراداً ومجتمعات، وعقلانية منهجية، وعلمية تطبيقه فالإسلام يبني في الفرد حرية إيمانية إنسانية.

والإسلام يبني في الفرد عقلية تدبرية منهجية.

والإسلام يبني فرداً فاعلاً عاملاً بانياً.

والإسلام يبني فرداً واعياً مخلصاً مراقباً.

والإسلام يبني فرداً يستلهم الحكمة في كل زمان ومكان

والإسلام يبني فرداً يؤثر على نفسه لا فيبتعد بها عن الانتهازية والوصولية

وفلسفة الإسلام تبني الجذور، وتسقيها، فإذا تكون المجتمع من أفراد تتبلور فيهم الخصائص فإنّهم يفرزون حكاماً أتقياء يزينهم الورع والزهد، حكماء وعقلاء ذوي وعي ومنهجية استبيانية.

والمجتمع يفرز بطانة استشارية ليست خادمة أمعة، وإنما واعية واعظة مصلحة ويفرز منفذين غير مستبدين، أو مستعبدين إنما لهم ضمائر تمثل الرقابة.. وهم يخضعون للرقابة الجماعية ولا يتوارون، والمجتمع يفرز شورى تمثل الشعب وتحاور بالمتطلبات، ولا تجادل بالباطل وإنما تصارح وتعي بالواقع.

فالعرب لم يكن لهم كيان إلا في ظلال الشريعة الإسلامية وتطبيقها، فقد أصبحت لهم في ظلها مبادئ وأضحت لهم إرادة، وصارت لهم حضارة، وتبلورت لهم وحدة، ونبغ منهم نوابغ، حيث كانوا من قبلها يخرجون أشتاتاً من الجزيرة، ويتمزّقون أرباً، فلما جمعتهم كلمة التوحيد خرجوا من الجزيرة شعوباً وأمما، ينشرون مبادئ، ويبنون دولاً وحضارات وتجسّدت الأقاليم الإسلامية العربية.. فلما انحسرت الظلال الإسلامية عن القبائل العربية، وخرجت في الموجات البشرية في القرون المتأخرة كقبائل سليم غيرَ مستظلة بالظلال الإسلامية، تطلب الغذاء المادي فإنّها أصبحت مدمرة كما يروي ابن خلدون في مدينة القيروان، بل إنّ الفتن والغارات عادت للقبائل العربية بمجرّد خروج الخلافة الإسلامية إلى دمشق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعادت القبائل العربية إلى الوحدة والحضارة على يد الملك عبد العزيز الذي استظل بظلال الإسلام، وجمع القبائل بالحكم الإسلامي، ونشر الأمن الذي يعتبر معجزة من المعجزات، ولاسيَّما في الجزيرة، واستقطب رجال الفكر، وبنى فكراً واعياً، وبنى أمة باقية مدناً حضارة، فالمجتمع رضي أن ينضم تحت راية إسلامية بغير عنصرية قبلية، فجمع بذلك بين الوحدة العربية والالتزام والإيمان، فانتظمت القبائل العربية في الجزيرة في وحدة شاملة كاملة عمودها الفقري تطبيق الشريعة لا تطبيق الموروث العنصري الاجتماعي الذي هجرته في ظل هذه الشريعة فهل نعي من التجارب شيئاً؟!

لقد كانت الروح الإيمانية عند الملك عبد العزيز نابعة فيه من تربيته وانتمائه، فالتف حوله الأخوان، وتوافدت إليه الوفود مسالمة للإسلام، راضية بتحكيم الشريعة في نفوسهم وأموالهم.

أمّا أولئك الذين يعلنون لجوءهم إلى الإسلام نتيجة موقف معين، وتاريخهم العملي لا يؤازرهم في عودتهم إلى الإسلام نتيجة الصدمة فهو إعلان أجوف، فلم يعلن صدام حسين تطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بمقتضاها في مجالسها الشورية، وفي محاكمها ولم يعلن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يحطم دور الملاهي ومنتديات الليل، ولم يأمر بإخضاع المناهج التربوية للتعاليم الإسلامية، ولا يعوض عنها الاحتمال أن يظهر بمظهر الزي الإسلامي، كأن يتعمم بعمته أو يطيل لحيته، فالشريعة نظرة شمولية نابعة من الجوانب الإيمانية الداخلية لا من النظرة الخارجية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهرس

المقدمة:..... - ٣ -
المبحث الأول ..... - ٤ -
ماهيـة الفكـر ..... - ٤ -
الاغتراب الفكري ..... - ٤ -
ماهية العقل ..... - ٧ -
الفكر التربوي وتشكيل المجتمع..... - ١٢ -
مكونات الذهن الإداري ..... - ١٤ -
المبحث الثاني..... - ١٦ -
الفكر العملي..... - ١٦ -
محاور التعليم العالي..... - ٢٠ -
الفرد بين البناء والمستقبل..... - ٢١ -
العمل والحياة ..... - ٢٧ -
العمل والفكر..... - ٢٩ -
المنهجية الزمنية..... - ٣١ -
المنهجية العقلية ..... - ٣٣ -
العمل في مسار الحب لله ..... - ٣٤ -
الإعلام والعمل ..... - ٣٦ -
المبحث الثالث..... - ٣٨ -
بنـاء العقليـة المنهجيـة ..... - ٣٨ -
بناء العقلية العربية..... - ٣٨ -
هل العقلية العربية قانعة؟..... - ٤٢ -

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العزيمة..... - ٤٥ -
الحياة والموت ..... - ٤٧ -
البطالة في العالم الإسلامي ..... - ٥١ -
التربية والمنهج العقلي ..... - ٥٤ -
الانحراف الفكري العدواني..... - ٥٦ -
المبحث الرابع..... - ٥٨ -
ثقافـــة الريـــاض..... - ٥٨ -
الجداول الفكرية في مدينة الرياض ..... - ٥٨ -
الرياض والفكر..... - ٦١ -
ثقافة العاصمة وبناء المفكر الواعي ..... - ٦٣ -
العولمة والحيرة ..... - ٦٥ -
سدّ الوحدة العربية ..... - ٦٧ -